إلياس بن يسعد

حُلم الذهَب الأحمَر

رواية

دار ومضة

حُلم الذهَب الأحمَر

عنوان الكتاب: حُلم الذهَب الأحمَر

المؤلف(ة): إلياس بن يسعد

السداسي الأول 2022

رقم الإيداع: 978-9931-896-66-1

النّاشر: دار ومضة للنشر والتوزيع والترجمة

إيميل: wamdaedition@gmail.com

هاتف:00213657300415 / 034 54 49 88

المقر: جيجل - الجزائر

المدير العام: سميرة قنون

المدير التنفيذي: ليلى لوكريف

تدقيق وإخراج فني: فريق ومضة

تصميم: إيمان عبد الحكيم

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

يمنع نسخ أو استعمال الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو أية وسيلة نشر أخرى من دون إذن خطي من الناشر

إلياس بن يسعد

حُلم الذهَب الأحمَر

رواية

دار ومضة
للنشـــر والتوزيع والترجمة

الإهداء:

إلى أحد شخصيات الرواية، الملازم عبدالقادر من قسم الشرطة
القضائية لولاية الجزائر افتراضا
والشرطي المتوفى حقيقة
ابن العم وأخي الذي ليس من رحم أمي:
عبدالقادر بن يسعد.

طبت حيا أو ميّتا يا عبدالقادر...

مقدمة الكاتب

وأنا شارد الذهن أجر عربة محملة بصناديق من البصل والطماطم وكيسا كبيرا من البازلاء ذات صباح باكر بأحد أسواق بيع الخضر والفواكه، لا أدري كيف بزغت في ذهني فجأة فكرة إنشاء هذه الرواية.

وفي إحدى ليال شهر ديسمبر/ كانون الأول على الساعة الثانية والنصف كنت أجلس وحيدا أتأمل السقف الحديدي داخل مصنع لتحويل مادة البلاستيك، فإذا بفكرة هذه الرواية تعود إلى ذهني مجددا. تدبّرت فيها قليلا ثم وضعتها جانبا وعدت إلى ممارسة هواية تأمل السقف ككل ليلة، فلا الوقت ولا المكان يساعدان على الاكتراث لفكرة كهذه.

بعد مُضي عام على ذلك كنت أجلس وحيدا داخل محل لبيع الإليكترونيات، وجدت أن فكرة كتابة هذه الرواية قد عادت لتطرق باب ذهني مرة أخرى. خاطبتني نفسي قائلة: "لابد أن المكان مناسب هذه المرة لمحاولة تجسيد تلك الفكرة على الورق"، فتحت الحاسوب قليلا ثم أعدت إغلاقه بعد عشرين دقيقة من الكتابة والمسح ثم قلت:

- دعني من هذا فالأمر شاق ومتعب، مشاهدة أحد الأفلام أمتع من هذا الهراء بكثير.

بعد عشرات المحاولات اليومية نجحت في إرضاء قلمي أخيرا...

إلياس بن يسعد

في كل شيء، النهاية هي الأهم!

أرسطو

حادثة المطبخ

1

تونس العاصمة

2004

- كوني حذرة يا أسيل، قد يخدشك بمخالبه الحادة !

- إنه قط صغير يا أمي لن يؤذيني.

عمري الآن ست سنوات. لم يمضي على ركوبي قطار التعلم وجلوسي على مقاعد الدراسة سوى أسبوعين، لكني رغم هذا لم أذهب إلى المدرسة اليوم فرأسي لا يزال يؤلمني كثيرا بسبب بكائي المتواصل بالأمس.

عندما ذهبت مع أمي في زيارة إلى منزل جدي الواقع خارج مدينة تونس، وهو منزل ريفي قديم من الطوب والقرميد متواجد داخل مزرعة كبيرة يستغلها جدي لزراعة القمح وتربية الأغنام والماعز. وجدت أن قطة جدتي الأليفة قد أنجبت أربع هِررة صغيرة، ولما حان موعد مغادرتنا لم أشأ الذهاب إلا وأن آخذ معي هرّا صغيرا إلى البيت، وهذا ما رفضته أمي جملة وتفصيلا.

قالت لي بكل قسوة:

- لن تأخذيه إلى البيت ولو صعدت روحك إلى السماء، هذا ما ينقصني إلا أن أقضي يومي في تنظيف فضلاته من تحت الأرائك وخلف الأبواب.

وبما أنني أعجبت كثيرا بذلك الهر الأبيض الصغير وأنّي مدللة أمي الوحيدة أقمت عزاء في بيت جدي من كثرة البكاء، فزادت أمي على ذلك بضربي حتى صرت لا أقوى على رؤية شيء أمامي، ما كان على جدي وقتها إلا أن وقف إلى جانبي وأقنع أمي بأن آخذ معي ذلك الهر.

وفعلا غادرنا منزل جدي والقط الأبيض الصغير برفقتي.

رغم أن أمي قامت بتحذيري في العديد من المرات خشية أن يؤذيني ذلك القط، لم أعر لكلامها أي اهتمام. فبينما تنشغل بتحضير طعام الغداء لنا، أجلس معها في المطبخ ملقية بالهر الصغير على ظهره وأقوم بدغدغة بطنه تارة وإمساك ذيله وأرجله الخلفية تارة أخرى، لقد كنت مستمتعة جدا بذلك. ثم فجأة هجم على يدي وانقضّ بأسنانه الحادة على أحد أصابعي لأحدث بذلك صراخا ملأت به أرجاء البيت كلّه.

أسرعت أمي مرهوبة لتقوم فورا بالصراخ في وجهي خشية أن يقوم ذلك القط الصغير بجرح يدي، فهي حريصة عليّ أشد الحرص. قفز القط خائفا من صوت أمي ليصطدم رأسه بذراع مقلاة الزيت المغلي وينقلب عليّ.

يا إلهي لقد انسكب الزيت المغلي كله فوق رأسي!

بسبب ذلك القط فقدت جزء من شعري وأُحرقت نصف رقبتي وجزءا كبيرا من ظهري وكتفاي...

الافتـــــراء

2

تونس العاصمة

أبريل/ نيسان 2019

لم يكن المنزل الواقع في ضاحية "مونفلوري" المفعمة بالحياة يشبه الكثير من المنازل المجاورة. بناية من الطراز الفرنسي القديم تعكس روعة النمط المعماري الذي نقلته فرنسا من أوروبا إلى شمال أفريقيا أواخر القرن التاسع عشر من خلال مشاريع الاستيطان في ذلك الوقت.

وقفت السيدة عزيزة أمام المنزل الذي يعود لصديقة ابنتها متأملة التفاصيل الصغيرة للنوافذ والجدران، كان منزل سلوى ذو طابق واحد وبلون بني مختبئ في زقاق ضيقة ويحيط به سور حجري من جوانبه الأربعة. ألقت المرأة الأربعينية نظرة أخيرة على واجهة المنزل ثم اقتربت من الباب وبدأت بالقرع ورن الجرس بشكل متكرر وعنيف مع الصراخ بأعلى صوتها.

لا تزال سلوى وهي الصديقة الوحيدة لابنتها تفترش الأرضية الرخامية لغرفتها وتغط في النوم رغم أن عقارب الساعة تجاوزت العاشرة والنصف صباحا. أجبرتها تلك الأصوات العالية على قيامها من النوم مفزوعة ومسرعة باتجاه الباب:

- من هناك؟

ردت السيدة عزيزة بنبرة توحي خلف الباب بضعفها وبكائها:

- افتحي يا سلوى، افتحي وإلا كسرت عليك الباب !

ارتبكت الشابة من صوت المرأة القابعة خلف باب منزلها فأحكمت إغلاقه جيدا من الداخل:

- من أنت؟ هل تريدين شيئا؟

- قلت افتحي الباب هيا.

- أنا لا أفتح الباب لأي غريب لا أعرفه رجل كان أم امرأة.

زادت هذه الكلمات من شدة القرع والصراخ لدى السيدة عزيزة:

- أنا عزيزة والدة أسيل، هيا افتحي الباب.

ما إن أزالت سلوى قفل الباب حتى اقتحمت المرأة المنزل بقوة والدموع تملأ خدّيها.

***

حديـقة صوفيـا

3

التاسعة صباحا، الجزائر العاصمة...

على بعد خطوات قليلة من أشهر مبنى في مدينة الجزائر وهو مبنى البريد المركزي، الذي تم تحويله من قِبل وزارة البريد والمواصلات إلى متحف لتاريخ البريد والاتصالات في البلد، كانت قد امتدت شمالا حديقة صوفيا على مساحة أكثر من 5 ألاف متر مربع. بأرضيتها الآجورية اللون وأشجارها المصفوفة على طول سياجها الحديدي المحيط بها، من موز ونخيل وأشجار للتوت البري والحمضيات والفواكه الاستوائية المختلفة، ويتوسطها قفص كبير الحجم تسكنه عائلة لحيوان السنجاب الهندي مخطّط الظّهر.

- أنظر يا أبي عصفوران يتشاجران!

مدّ الأب الجالس رفقة ابنته فوق كرسي خشبي يده ليزيح عن ناظره غصن شجرة كانا يجلسان تحت ظلها ثم نظر بالاتجاه الذي أشارت إليه الصغيرة. كان زوجان من طائر الدوري رمادي اللّون يلعبان فوق تمثال المرأة البرونزية التي انتصبت وسط الحديقة، فقد اعتاد السياح وسكان المدينة قضاء وقت مريح رفقة أحبائهم داخل هذا الصرح الطبيعي الذي نجح قبل سنوات قليلة فقط من استعادة صورته الطبيعية، بعد ما كان مصدر إزعاج وخوف

للمـارة ولسـكان الأحيـاء القريبـة، والـذي ظـل لوقـت طويـل المـلاذ المفضل للمنحرفين والمتشردين وللكثير من مدمني المخدرات.

بعـد قضـاء ليلـة داخـل الحديقـة، فتحـت أسـيل شـفري عينيهـا بصـعوبة بالغـة وبملامـح مخيفـة لا تعبـر عـن فتـاة فـي بدايـة العشـرينيات مـن عمرهـا، كـان أول مـا أحسـت بـه هـو ألـم كـوخز إبـرة على ذراعهـا الأيمـن. رفعـت رأسـها عـن الوسـادة التي كانـت أكثر غلاظـة عـن التي اعتـادت عليهـا عنـد نومهـا، لتـدرك أنهـا كانـت نائمـة فـوق سـرير حديـدي يميـل بنصـفه السـفلي على الجهـة اليسـرى باتجـاه الحـائط. كتمـت أسـيل صـرختها وتسـارعت نبضـات قلبهـا حـين أبصـرت فجـأة رجـلا عجـوزا مشـمرا على سـاعديه ومنغمسـا برأسـه داخل صينية نحاسية كبيرة لتحضير العجائن.

بفعـل الجـو البـارد ونسـمات البحـر القريـب مـن حديقـة صـوفيا، شـعرت أسـيل وكأنهـا ستصـاب بالزكـام، حاولـت إمسـاك السـعال الـذي فاجأهـا حـين اشتـمّت فغـوة خميـرة الخبـز إلا أنهـا فشـلت في ذلـك. أحـدثت بسـعالها صـوتا جعلـت مـن الرجـل العجـوز يتوقـف عـن عمله.

كانـت رائحـة عجينـة طحـين القمـح المبتلـة بالمـاء السـاخن تفـوح مـن المطـبخ الخلفـي لمحـل بيـع البيتـزا والأكـلات السـريعة الواقـع فـي مـدخل حديقـة صـوفيا، والـذي تعـود ملكيتـه إلـى العجـوز عبـد الرحمـان. لقـد كـان هـذا العجـوز محظوظـا جـدا في أواخـر سـنة 1963 وإبّـان رحيـل المعمّـرين الفرنسـيين حـين اسـتطاع الحصـول على هـذا

المحل بمبلغ زهيد في ذلك الوقت، والذي كان يمارس فيه مهنته القديمة كمصلح للأحذية قبل أن يغير نشاطه إلى الطبخ وبيع شطائر البيتزا لروّاد حديقة صوفيا منذ أكثر من أربع عشرة سنة.

استدار العجوز مخاطبا الفتاة:

- سلام عليك يا ابنتي، خيرا إن شاء الله.

كان يحاول جاهدًا ألا تكون نبرة صوته مخيفة، ثم تقدم نحوها حاملا بيديه مائدة بها كأسًا من الحليب وقطعًا صغيرة من البسكويت كان قد أعدّها مسبقا.

صاحت أسيل بصوت متهدّج:

- من أنت؟ ماذا تريد مني؟

رد العجوز مضطربا وهو يضع المائدة على الأرض بحذر:

- اهدئي يا ابنتي! لا تخافي فلن أؤذيك.

لا زالت أسيل تشعر بأنها متعبة كثيرا، مشوشة الدماغ، شاردة الذهن وترتعش من الخوف. لم ينجح العجوز بكلامه أن يطمئنها فنهضت من مكانها مرهوبة تحاول الذهاب خارجا.

- توقفي يا ابنتي لا تخافي.

ظل ما يقارب نصف ساعة محاولا إقناعها بأنه عثر عليها نائمة على كرسي في مدخل هذه الحديقة عند الساعة السادسة والنصف صباحا. لقد اعتاد القدوم باكرا إلى محله لتحضير عجائن البيتزا بعد خروجه من المسجد فجر كل يوم، فالاستيقاظ باكرا عند هذا العجوز أصبحت عادة أُدمن عليها منذ عقود زمنية

طويلة ولا يُخيل إليه يوما أن يتخلى عنها، بل هي في الأصل عادة كل كبار السن تقريبا والذين يذكروننا بمقولة الكاتب "إرنست هيمنغواي" في رواية الشيخ والبحر حين قال: «أتعرف لماذا يستيقظ كبار السن مبكرين؟ هذا ليجعلوا أيامهم المتبقية أطول من باقي أيام الناس».

- مستحيل! فأنت صاحب سيارة الأجرة اللعين، أنت من قام بتعنيفي رفقة من كانوا معك.

استجمعت أسيل قواها وخاطبته بشجاعة وبالكثير من عدم رغبتها في تصديق كلامه.

رد العجوز عبد الرحمان:

- وكيف أفعل هذا وأنا في السبعين من عمري يا ابنتي؟ وعن أي سيارة أجرة تتحدثين؟ للمرة العشرين أخبرك بأنك كنتِ على مقربة من محلي هذا الذي نحن فيه الآن، تغطّين في نوم عميق على كرسي خشبي صلب وكل أعضائك كانت ترتجف بردا، والفعل الوحيد الذي قمت به هو إحضارك إلى هنا اشفاقا عليك من البرد وخوفا مما قد يحصل لك وأنت نائمة، لماذا لا تصدقين ما أقول؟

تنفست أسيل بعمق محاولة التخلص من خوفها، ثم أغمضت عينيها برهة لتقودها ذاكرتها إلى مساء أول أمس عند خروجها من الجامعة وهي تهرول لقطع الطريق، كانت قد تأخرت كثيرا في ذلك اليوم وهي تنتظر قدوم العون المسؤول عن استعارة الكتب داخل مكتبة الجامعة.

زال ألم رأسها قليلا وعادت إليها ذاكرتها أخيرا لتتذكر أنها كانت في طريقها إلى المنزل عندما استقلت سيارة أجرة كانت مركونة في موقف للحافلات ثم اكتشفت بعد ركوبها أن بها ثلاثة أشخاص.

- أولئك الأوغاد ! صاحت أسيل بعدما تذكرت بوضوح ما حدث معها عشية أول أمس، ثم تابعت كلامها مؤكدة:

- نعم أولئك الأوغاد الذين كانوا في السيارة !

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تتذكر اللحظة التي صعدت فيها إلى تلك السيارة مع أولئك الأشخاص وكيف أنها لم تكترث لأمرهم رغم ملامحهم الغير مطمئنة، فليس من عادتها الوقوع في أخطاء كهذه عندما تكون خارج البيت وفي وقت متأخر!

فلطالما كانت أسيل تتحلى بصفات لا تشبه الكثير من فتيات سنها. رغم أنها لا تزال في بداية العشرينيات إلا أنها بعمر عقلي يفوق الثلاثين عاما أو أكثر، تعلم أن الوقت المتأخر قد يجلب لها المشاكل، وأن عليها في كل مرة التحديق جيدا في وجه سائق التاكسي من خلال زجاج السيارة قبل الشروع في فتح الباب، وأن لا ثقة في جميع الرجال حتى أساتذتها وزملاءها في الجامعة، إلا أن مخافة أن تتأخر عن العودة إلى منزلها وتضايقها من عامل المكتبة كانا قد أنسياها كل مبادئها وقواعدها الشخصية التي سطرتهم خلال حياتها خصوصا عند انتقالها إلى الجامعة.

نظرت إلى العجوز ثم سألته متنهدة:

- وأين أنا الآن؟ في حديقة "الباساج"؟

رد العجوز باستغراب:

- "الباساج"؟ أين يقع هذا المكان؟

- هنا في وسط تونس.

تحدثت أسيل وهي تمسح دموعا ملأت وجهها.

أدرك العجوز أن هذه الفتاة من جنسية تونسية وليست من الجزائر. أبدى ابتسامة بريئة أراد من خلالها التخفيف من قسوة كلامه حين يخبرها أن هذا المكان الذي يتواجدان فيه الآن هو في بلد آخر غير بلدها:

- أنتِ في الجزائر يا ابنتي ولستِ في تونس.

نزلت كلمات عبد الرحمان عليها كالصاعقة، لم تستطع كتمان ألم الصدمة داخلها بعد سماعها كلمة الجزائر، فطوال سنواتها التي عاشتها برفقة أمها لم تغادر فيها مدينتها وحدها ولو لمرة واحدة، فكيف يتقبل عقلها أن تكون بين ليلة وضحاها خارج بلدها وبعيدة عن منزلها بمئات الكيلومترات!

اتسعت حدقتا عيناها غير مصدقة لما تسمع، شعرت بهمس خافت داخلها يحثها على التريّث قليلا قبل القيام بأي فعل.

جلست بتثاقل على طرف السرير ثم رفعت رأسها قائلة:

- هل أنت واثق بأن ما تقوله ليس مزحة؟

اندهش العجوز من كلامها:

- مزحة؟ ولما تقولين أنها مزحة؟

- لأنني في تونس ولست في الجزائر، أنا لم أغادر مدينتي أنا في تونس.

تنهد عبد الرحمان ثم أزاح الستار الذي يفصل بين المطبخ ومقدمة المحل. مشى قليلا ليصل إلى الباب الخارجي ثم فتح بيده قفل الباب ونادى أسيل إلى الخارج:

- تعالي لتري بنفسك مدينتك تونس.

ترددت الفتاة قليلا ثم قامت تمشي بخطوات متثاقلة إلى أن وصلت إلى مخرج المحل. رفعت رأسها تنظر بعينين شبه مغلقتين إلى الخارج وأخذت تتأمل ما حولها: سماء صافية وزقزقة الطيور، أشجار كثيفة تهيمن على المشهد، سياج حديدي يحيط بالحديقة، نخلة بطول ثلاثة طوابق تتوسط المكان، أطفال يلعبون بين الأروقة، بنايات شاهقة بمعمار أوروبي بيضاء اللون، بائع فشار متجول، جدران حوّلها رسامون هواة إلى لوحات فنية بها صور لأشخاص وزخارف مختلفة..

أطالت نظرها بإمعان وكررت التحديق يمينا وشمالا لكنها خرّت خائبة دون أن تتمكن من التعرف على المكان. لم ترى ما يوحي لها بأن هذا المنظر مألوف بالنسبة إليها.

بعد لحظات سمعت خلف أسوار الحديقة صوت صرير مكابح لحافلة تتوقف على حافة الطريق، نزل الركاب واحدا تلوى الآخر إلى أن أعادت الحافلة إغلاق أبوابها واستعدت للمغادرة. ما إن مشت قليلا حتى وقعت عيناها على مشهد كان بمثابة الدليل

القـاطع الـذي يؤكـد كـلام الرجـل العجـوز بأنهـا فـي الجزائـر الآن وليسـت فـي بلـدها تـونس، وكـان أيضـا بمثابـة جرعـة ألـم أخـرى سُـكبت على قلبهـا. وقعـت عيناهـا على الجـزء الخلفـي للحافلـة والـذي زُيـن بأكملـه بصـورة لطفلـة صـغيرة تحمـل علـم الجزائـر بيـدها اليمنى وبعبـارة "**تحيـا الجزائـر**" كانـت قـد كتبـت بجانبهـا بـاللون الأخضـر والأبيض والأحمر.

* * *

الورطة

4

- خالتي عزيزة ! ما بك يا خالتي، ما الذي حلّ بك؟
مسحت الدموع عن خديها ثم همّت بالدخول.
فور دخولها لم تستطع السيدة عزيزة تمالك نفسها من تفحص المكان. كان المنزل القديم لصديقة ابنتها أحد الموروثات الفرنسية التي تزخر بها العاصمة التونسية. أرضية مغطاة بزليج بني، عوارض سميكة شاركت اللون الأبيض مع سقف يعلو قليلا عن العادة، جدران بلون بني زُينت جميع زواياها العلوية بمجسمات صغيرة من الخزف والزجاج على شكل فراشات مضيئة.
كانت تلوح في كل أرجاء المنزل لوحات رسمتها سلوى حديثا، فيما خصصت الغرفة المقابلة للمطبخ مرسمًا تقضي فيه أغلب أوقات فراغها.
كانت تلك الغرفة أشبه بمختبر علمي تعمّه الفوضى: أوراق للرسم بأحجام مختلفة مسندة إلى جدران الغرفة، تحت النافذة وُضعت طاولة كبيرة تتبعثر فوقها أدوات للرسم من أقلام الرصاص وألوان مائية وخشبية، أقلام وأعواد للفحم، وكأس وُضعت داخله مجموعة من فراشي للرسم المائي والزيتي، بالإضافة إلى خزانة خشبية كبيرة بها الكثير من اللوحات الفنية وعلب للألوان، وعدد من حاملات اللوحات منتصبة في زوايا الغرفة الأربع.

ورثت سلوى هذا المنزل عن أبويها، فعند بلوغها عامها الثاني توفي والدها بعد صراع طويل مع مرض تشمع الكبد أو ما يعرف بالتليف الكبدي نتيجة إدمانه على شرب الكحول، ألزمه الفراش ما يزيد عن سنة كاملة قبل وفاته ليلة عيد ميلاد ابنته الصغيرة. أما أمها فقد وضع حادث انقلاب حافلة لنقل عمال الشركة حدا لحياتها تاركة فلذة كبدها وحيدة وهي في التاسعة عشر من العمر.

عند دخولها بهو المنزل تكلمت السيدة عزيزة بنبرة حادة:

- أين ابنتي أيتها الشقية؟ أين أسيل؟

- أسيل! وما بها أسيل يا خالتي؟ وأين هي؟

- هل تسخرين مني؟ أنا من تسألك هذا السؤال، هيا تكلمي أين ابنتي؟

- لا أعلم أين هي صدقيني. أخبريني ما الذي حدث يا خالتي أرجوك.

ألحّت سلوى مترجية السيدة عزيزة بأن توضح لها ماذا جرى لصديقتها، وبالكثير من الصراخ والعبارات العنيفة لم تترك لها أم صديقتها فرصة لتفهم ما الذي يحدث.

واصلت السيدة عزيزة توجيه أسئلتها والصراخ عليها بأعلى صوتها محمّلة إياها مسؤولية اختفاء ابنتها.

- أنت صديقتها الوحيدة. أسيل لم تعد إلى المنزل منذ الأمس، هاتفها لا يرن وليس من عادتها المبيت خارجا أو إغلاق هاتفها.

- لـم تعـد إلى المنـزل؟ كيـف لـي أن أعـرف أيـن مكـان أسـيل؟ أنـا مريضـة كمـا تـرين، لـم أذهـب إلى الجامعـة منـذ يـومين، لـم أرهـا منـذ ذلك الحين ولم نتحدث عبر الهاتف منذ أيام.

- نعـم صـدّقت كلامـك، أنـا على علـم بـآخر خـلاف بينكمـا، وأعلـم أيضـا أن أسـيل كانـت سـببا في عـدم حصـولك على المنحـة الدراسـية لإكمـال دراسـتك في رومانيـا، مـا ذنـب ابنتي إن كانـت هـي الطالبـة الأولى في دفعتكم؟

- أقسـم لـك أن شـجارنا كـان بسـبب شـيء آخـر ولا دخـل لموضـوع المنحة الدراسية فيه.

بعـد وفـاة والـديها لـم تكـن سـلوى مسـتعدة لتكـوين صـداقات جديـدة. في يومهـا الأول بالجامعـة وفي رواق الكليـة التقـت بأسـيل أثنـاء عمليـة التسـجيلات فـي بدايـة الموسـم الدراسـي، جمعتهمـا الظـروف نفسـها وتقاسـمتا مـرارة أن تكـون بمكـان لا تعـرف فيـه أحـد ولا تملـك فيـه صـديقا، لقـد كانتـا تتشـاركان في كـل شـيء تقريبـا، ومـع مـرور الوقـت تعمقـت صـداقتهما يومـا بعـد آخـر دون شـعورهما بذلك.

لقـد حلمـت كثيـرا بإكمـال دراسـتها خـارج الـبلاد، فقـد كانـت متفوقـة في دراسـتها دائمـا، كانـت شـعبة الرياضـيات مـن أصـعب التخصصـات بالنسـبة لأغلبيـة الطلبـة، لكـن حبهـا لهـذه المـادة أيـام الثانويـة كـان حـافزا لهـا للتميز والتفـوق، أمـا صـديقتها أسـيل فقـد كانـت على هـرم المتفـوقين دائمـا، حرصـها على متابعـة المحاضـرات وإنجـاز الواجبـات

وقـراءة الكثيـر مـن الكتـب جعـل منهـا الطالبـة الوحيـدة التي حظيـت بمنحـة جامعيـة في إحـدى جامعـات دولـة رومانيـا، مـا أثـار خيبـة سلوى وغيرتها الشديدة من صديقتها.

التزمت الفتاة الصمت قليلا ثم قالت بنبرة حزينة:

- وماذا وقع لأسيل؟

- لقـد أخبرتـك مـا الـذي وقـع، أسـيل مفقـودة أو مختطفـة، هاتفهـا لا يـرن منـذ ليلـة البارحـة ولـيس مـن عادتهـا غلـق هاتفهـا أو التـأخر عـن العودة وأنت تعرفين ذلك جيدا.

- صـحيح أنّـي وأسـيل متخاصـمتان منـذ الأسـبوع الماضـي لكنهـا صـديقتي الوحيـدة ويـؤلمني مـا يؤلمهـا، كنـت قـد رأيتهـا آخـر مـرة وهـي تخرج من الـ..

لم تكمل سلوى كلامها كاملا لتقاطعها السيدة عزيزة قائلة:

- أنـت سـبب كـل هـذا وسـبب مـا قـد يحصـل سـوءا لابنتي، لا مزيـد مـن الكـلام معـك الآن، أنـا ذاهبـة للبحـث عنهـا وسـتكملين أنـتِ حديثك مع الشرطة وليس معي.

خرجـت صـاحبة الـ 42 عامـا مـن منـزل سـلوى مسـرعة تاركـة صـديقة ابنتهـا متسـمرة في مكانهـا كالصـنم لا تقـوى على نطـق كلمـة واحـدة بعـد مـا سـمعته منهـا، أحسـت بشـلل يتصـاعد مـن قـدميها شـيئا فشـيئا ليصـل إلى بقيـة أعضـاء جسـمها، ثـم على نحـو واضـح شـعرت بـأن هـذه الحادثـة لـن تبقـى دون تبعـات وبـأن الكثيـر مـن المشـاكل والأوقـات العصـيبة في انتظارهـا. رمـت بنفسـها متثاقلـة على كرسـي

وضع في بهو المنزل وبقيت دون حركة تحط يديها على وجهها تفكر فيما يجب عليها القيام به، فجأة اهتز هاتفها النقال فوق الطاولة.

هرعت باتجاهه لمعرفة من المتصل، نظرت إلى الشاشة بعينين برّاقتين وحينها شعرت بالخوف حقا:

إنه رقم مجهول!

***

عبد القادر

5

مقر الشرطة القضائية

حي باب الوادي، الجزائر العاصمة

الساعة التاسعة وعشرون دقيقة صباحا...

دبيب حركة رجال الشرطة، رائحة لفائف التبغ الملقاة على السلالم المؤدية إلى الباب الرئيسي تبعث على القيء.

يفتح الملازم عبد القادر الباب لينهي بذلك ليلة طويلة قضاها بين مراقبة كاميرات الشوارع وإعادة ترتيب ملفات أمنية مهمة. كان متحمسا جدا للتوجه مباشرة صوب سريره والخلود إلى النوم من شدة التعب فهو لم يتعود بعد على العمل الليلي بالرغم من طول سنوات عمله في سلك الشرطة، إلا أن ما شاهده من خلال شاشات الكاميرا حتّم عليه معرفته جيدا قبل مغادرة المدينة.

كان الطريق الرابط بين الأحياء الغربية للعاصمة ووسط المدينة دائم الازدحام والتكدس المروري. تجنب عبد القادر طابور السيارات المتوقفة وسط الشارع سالكا طريقا ضيقة تمر بجانب أحياء القصبة، مرورا بجامع "كاتشاوة" الشهير والأزقة القديمة للعاصمة متوجها بسرعة نحو ساحة البريد المركزي.

عثر الملازم على مكان يركن فيه سيارته بمحاذاة إحدى الخيم لعرض التحف والأواني النحاسية كانت منصوبة على حافة

الطريق. تطلب منه الوصول إلى وسط المدينة حوالي خمس عشرة دقيقة بسبب المسالك الضيقة التي اتخذها.

قبل أشهر قليلة وفي يوم كل جمعة أصبح يعد هذا الجزء من العاصمة رمزا للحرية ومنبرا للمحتجين منذ بداية الحراك الشعبي. في أواخر شهر فبراير وبالتحديد في اليوم الثاني والعشرين اندلعت شرارة هذا الحراك فور الانتهاء من صلاة الجمعة مباشرة، ابتداء من أحياء وسط العاصمة وضواحيها القريبة لتعمم الفكرة على كل الأحياء والضواحي البعيدة لتشمل بعدها جل المدن والولايات الجزائرية الأخرى.

ذاك الجزء من وسط العاصمة وكما يطلق عليه باسم ساحة البريد المركزي أصبح النقطة الأهم في ميدان الحراك الشعبي. غدا المكان الذي وجب أن يلتقي فيه جميع سكان العاصمة القادمين من كل أحياء المدينة وفي يوم واحد للتعبير عن مطالب سياسية تدعو إلى تغيير نظام الحكم والذي دام قرابة عقدين من الزمن. نجح المحتجون في إيصال رسالتهم من خلال خروجهم كل أسبوع إلى الشوارع مطالبين الرئيس بوتفليقة بالتنحي عن الحكم مع محاسبة الذين قادوا البلاد طيلة فترة غياب الرئيس المريض، وفعلاً وتحت الضغط المتواصل للشارع أصدر الرئيس قرار استقالته في بداية شهر أبريل. لم يشفي هذا القرار غليل الملايين من المواطنين الذين خرجوا منذ شهر فبراير الماضي ضد الفساد والمحسوبية وضد الكثير من التصريحات المستفزة لهم في كل مرة

من قبل قادة نظام بوتفليقة، والذين ارتفع سقف مطالبهم إلى تغيير جذري يقضي بعزل كل رموز النظام القائم والدعوة لحكومة توافقية تترأسها شخصيات سياسية من الحراك الشعبي. فشلت هذه الدعوات الشعبية في كل مرة بإقناع الشخصيات المتحكمة بزمام الأمور في الإنصات إليها ما أدى إلى استمرار المسيرات السلمية لأسابيع أخرى.

تلبدت السماء فجأة بالسحب، في غضون دقائق قليلة حجبت غيوم سوداء سماء العاصمة ثم بدأت قطرات مطر خفيفة بالنزول. يقطع عبد القادر الطريق بسهولة بينما تسير السيارات متلاصقة ببعضها بسبب الازدحام. ما إن وصل باب حديقة صوفيا راح يقلب بذاكرته عن لون لِباس الفتاة التي شاهدها على شاشة كاميرات المراقبة والتي تنتشر عبر جميع الشوارع الرئيسية بنظام وُضع ليعزز الجانب الأمني لمدينة الجزائر.

عبَر ملازم الشرطة مدخل حديقة صوفيا ثم وقف يحدث نفسه قائلا:

- أين سأجد من بين جموع الناس هذه فتاة بنظارات طبية وشعرًا متوسط الطول، ترتدي بنطلون جينز وسترة جلدية سوداء وتلف حول رقبتها وشاحًا أحمر اللون؟

توقف بعد خطوات قليلة يحاول إيجاد جواب لأسئلة تؤرقه:

- تتوقف سيارة فيخرج منها رجل بقبعة سوداء ونظارة شمسية تعيق رؤية ملامحه، يحمل بين يديه فتاة تبدو في عقدها الثاني أو

الثالث من العمر ويمشي بها بين تلك الأشجار الكثيفة، ثم يخرج وحيدا باتجاه سيارته ويقلع بها مسرعا ! ما القصة يا ترى؟ لا شك أن تلك الفتاة تعرضت لموقف سيء على يد ذلك الرجل!

أكمل عبد القادر جملة تساؤلاته ثم تقدم قليلا تاركا بصره يتجول بين أروقة الحديقة لعلّه يجد ذلك الخيط الذي يقوده لمعرفة أحداث الليلة الماضية.

وقف تحت جذع إحدى الأشجار متنهدا وكأنه فشل في إيجاد ضالته !

يبدو أن إيجاد حل كهذا ليس بالسهولة التي كان يتخيلها. استأنف الملازم خطواته ليصل وسط الحديقة ثم راح يفتش يمينا وشمالا.

همس لنفسه قائلا:

- لا جدوى ! إنني كمن يبحث عن إبرة وسط مستودع كبير من القش.

أنهى تناول سيجارته ثم استدار عائدا إلى السيارة وإذا بصورة على يساره لفتت انتباهه دون أن يدري. على بعد أمتار قليلة منه كان يقف رجل عجوز في سنوات متقدمة من العمر أمام محل لبيع البيتزا والأكلات السريعة، وبجانبه تقف فتاة على عتبة الباب. عشرينية بشعر بني يميل بلونه قليلا إلى الأشقر الداكن، ترتدي بنطلون جينز أزرق اللون وقميصا صوفيا أسود اللون بخطوط بيضاء دقيقة عليه سترة جلدية، وتضع على عينيها نظارات طبية مربعة الشكل. أعاد ملازم الشرطة إلى ذهنه الصور التي شاهدها

على شاشة كاميرات المراقبة ما تأكد أنها الفتاة المطلوبة. وبما أنه شرطي بسنوات خبرته الطويلة عرف من خلال وضعية وقوف تلك الفتاة أمام ذلك الرجل العجوز أن هناك أمرًا ما حتم عليه حسه الأمني التحري عنه فورًا.

نظر إليهما بعينين شبه مغلقتين ثم تقدم نحوهما دون سابق تفكير:

- السلام عليكم !

- وعليكم السلام.

رد العجوز عبد الرحمان ثم حرّك رأسه ينظر إلى الفتاة التونسية الواقفة بجانبه.

توقف الملازم أمامهما مشهرًا في وجههما بطاقته المهنية الخاصة بسلك الشرطة قائلا:

- الملازم عبد القادر من قسم الشرطة القضائية لمدينة الجزائر، هل يمكنني معرفة ما الذي يحدث هنا؟

أبعدت أسيل يدها عن طرف الباب بينما ملأت ملامح الخوف وجهها. عدّلت من وقفتها ونظرت إلى صاحب المحل نظرة تريد بها أن يبادر هو بالتحدث إلى الشرطي. كان قلبها يخفق بشدة وهي تنظر مطوّلة إلى البطاقة التي سحبها من جيبه.

- ليس هنالك شيء يا بني، لقد كنت بصدد القدوم إليكم لكنكم سبقتموني إلى هنا.

تكلم الرجل العجوز وهو يمسح يديه من بقايا العجين ثم أكمل قائلا:

- أنا صاحب هذا المحل واسمي عبد الرحمان، أما هذه الشابة فأخبرتني أنها تدعى أسيل من جنسية تونسية وأظن أنها قدمت إلينا بطريقة غريبة حسب ما فهمته منها.

- بطريقة غريبة؟ ماذا تقصد بطريقة غـ..

قاطعه العجوز قائلا:

- عذرا حضرة الشرطي، لكني أعتقد أنه لو تحدثنا في الداخل لكان أفضل !

- ولماذا؟

- لدي ما أخبرك به.

* * *

الاعتقال

6

بعد تفكير وتردد كبيرين ردت سلوى على المكالمة أخيرا:

- نعم، من معي؟

- مرحبا سلوى أنا يعقوب زميلك في الجامعة، أتصل بك من هاتف أحد أصدقائي. أين أنتِ؟ لم تأتي إلى الجامعة لليوم الثالث هل أنت بخير؟

- أهلا بك يعقوب، أنا في المنزل الآن، لم أستطع القدوم إلى الجامعة فقد أُصبت بزكام حاد فأنت تعلم أنّي أعاني من حساسية الأنف وهي تزداد كثيرا في مثل هذا الوقت من السنة.

- يا إلهي، شفاك الله وعافاك يا صديقتي.

- شكرا جزيلا، يعقوب لقد اتصلت في الوقت المناسب أريد التحدث إليك.

- ماذا هناك أخبريني!

- لدي مشكلة كبيرة وأحتاج مساعدتك يا يعقوب، سنتقابل بعد نصف ساعة من الآن في كافتيريا النجمة فهي قريبة من منزلي.

- حسنا سأكون في انتظارك هناك فأنا قريب منها أيضا.

أغلقت سلوى الاتصال مع زميلها ثم قامت مسرعة رغم شعورها بذلك التعب الذي تسببه الحمى. كان الاستحمام كافيا ليخلصها من ثقل يومين من الاستلقاء على سريرها دون حركة، جففت

شعرها بسرعة وقامت بارتداء ملابسها ثم حملت هاتفها ومفتاح منزلها وهمّت بالخروج.

* *

بمبانيها البيضاء القديمة وبأشجار النخيل الشاهقة بين الأرصفة وبساحاتها المكتظة بالسياح والمنتشرة عبر شوارعها الجميلة، لا تزال تونس العاصمة الوجهة المفضلة للكثير من الراغبين في قضاء عطلة هادئة بعيدا عن روتينهم اليومي وعن مشاق العمل واليوميات المملة.

عندما وصلت سلوى بالقرب من المكان الذي اتفقت عليه مع زميلها، سحبت هاتفها من جيبها لتتأكد أن الساعة مناسبة للجلوس لمدة تكفيها لسرد مشكلتها والتوصل إلى حل لهذا المأزق الذي وقعت فيه.

كان الشارع الضيق يكاد يكون خاليا من جموع الناس، وهي تقريبا حال جميع الأحياء الصغيرة في تونس العاصمة على خلاف الأحياء الكبرى والرئيسية التي لا تخلو من زحمة المشاة والسيارات عبر طول النهار وخلال شطر كبير من الليل أيضا.

قطعت سلوى الطريق متجهة صوب باب الكافتيريا، توقفت قليلا أمام المدخل ثم أنزلت رأسها محدثة سعالا شديدا أحسّت وكأنه سيحطم عظام صدرها. ما إن رفعت رأسها قامت بإلقاء نظرة إلى الداخل بغية معرفة إن كان المكان مزدحما بالجالسين أم لا.

تقدمت إلى داخله واضعة يدها على مقبض الباب ثم تفاجأت برؤية والدة صديقتها أسيل تجلس مع رجل في آخر الرواق، كانا يرتشفان فنجان القهوة وبينهما مجموعة من الأوراق موضوعة على الطاولة. خفق قلبها بشدة واهتزت مشاعر القلق والذعر لدى رؤيتها لهذا المشهد لتستدير مسرعة إلى منزلها وكأنها أحست أن بينهما شيئا ما كان يُطبخ ضدها.

- يا إلهي أين هذا الهاتف اللعين !

كان هاتفها يرن بينما أدخلت يدها قلقة تبحث عنه بين الأغراض المتراكمة داخل حقيبتها اليدوية.

- ألو، يعقوب !

فتحت الاتصال بينما كانت تمشي مسرعة وهي تحاول إغلاق حقيبتها بصعوبة.

- أين أنتِ يا سلوى؟ أنتظرك منذ عشر دقائق، لدي عمل ولا يجب أن أتأخر عنه.

- أعتذر منك يا صديقي، أنا في طريقي إلى المنزل الآن، لقد كنت أمام الكافتيريا مباشرة لكنني عدت أدراجي.

- لماذا عدتي هل من مشكلة حدثت؟

- نعم يا يعقوب، سأعيد الاتصال بك حالما أصل إلى منزلي.

- حسنا.

كان منزلها يبعد عنها بحوالي عشرين دقيقة مشيا على الأقدام، أعادت وضع الهاتف داخل حقيبتها ثم اتجهت بسرعة كبيرة

تحاول قدر الإمكان أن تبتعد عن المكان. صعدت الأدراج المؤدية إلى الطريق الرئيسية جريًا لعلها تجد سيارة أجرة توصلها إلى المنزل في أقل وقت ممكن، ولحسن حظها رأت إحدى السيارات متوقفة أمام نهاية الأدراج مباشرة.

فتحت باب السيارة مخاطبة السائق بأن ينطلق بسرعة:

- أريدك أن توصلني إلى منزلي بحي مونفلوري بسرعة لو سمحت.

- في أي مكان بالضبط؟

- بجوار المبيت الجامعي طه حسين.

- حسنا يا آنسة.

ما إن وصلت سيارة الأجرة إلى المكان، شاهدت سلوى مركبة الشرطة مركونة على حافة الطريق وثلاثة من رجال الشرطة يقفون أمام باب منزلها وكأنهم ينتظرون عودتها.

- تفضلي يا آنسة لقد وصلنا.

خاطبها السائق وهو يمد يده ليستلم منها النقود.

نزلت سلوى من السيارة مرعوبة لا تشعر بثقل رجليها وكأن النصف السفلي من جسدها قد أصابه الشلل، خاصة وأنها قد ربطت فورا حادثة اختفاء صديقتها وتهديد السيدة عزيزة لها مع مشهد توقف رجال الشرطة أمام منزلها لتجزم أنهم أتوا من أجلها من دون شك، وهذا ما أعاد لها ذلك الإحساس المؤلم بأن الكثير من المشاكل والأوقات العصيبة في انتظارها.

مشت قليلا لتصل إلى رجال الشرطة ملقية التحية عليهم.

- نحن نبحث عن صاحبة هذا المنزل هل تعرفينها؟

سألها أحد رجال الشرطة بلهجة توحي بالصرامة والجدية في العمل.

ابتلعت سلوى ريقها بصعوبة ثم ردت قائلة:

- أنا من تبحثون عنها، هل من مشكلة؟

تقدم الشرطي منها ثم أظهر ورقة وسلمها إياها:

- لدينا هنا أمر باقتيادك معنا إلى مركز الشرطة.

لم تنطق سلوى بأي كلمة من شدة صدمتها بما يجري ثم صعدت سيارة الشرطة مباشرة دون أن تستفسر عن السبب. جلست على المقعد الخلفي وهي محاطة بشرطيين من الجهتين ثم راحت تتساءل مع نفسها بالكثير من القلق والاستغراب:

- يا إلهي ما هذه الورطة التي نزلت عليّ فجأة؟

* *

كانت المدينة تحتضن في ذلك اليوم ما يسمى بالمهرجان التونسي للمسرح الوطني والذي قد حط الرحال صباحا في وسط العاصمة قادما من ولاية الكاف الحدودية، ويقدم هذا المهرجان الثقافي أزيد من مائة عرض مسرحي بالإضافة إلى الكثير من الندوات العلمية والعروض التنشيطية والثقافية المختلفة، ما يجعل المدينة مكتظة عن آخرها طيلة أيام هذا المهرجان.

شقت مركبة الشرطة حي المنار بسرعة كبيرة بعد خروجها من تكدس السيارات وسط الشارع من شدة الازدحام، ثم سلكت

الطريق السريع المحاذي للقطب الجامعي لتتجه صوب مركز الشرطة الواقع وسط مدينة باردو.

ضيّقت سلوى عينيها قليلا لتتأمل جيدا ما حولها: على الجهة اليسرى من نافذة السيارة ترى خلف الزجاج واجهة عمارة ذات ثمانية طوابق عُلقت عليها لوحة إشهارية لمصنع الجبن، في حين تهيمن مزارع كبيرة من أشجار الزيتون على الجهة اليمنى من المشهد. ظلت الفتاة تتابع بالكثير من القلق والذعر رؤية المشاهد المتغيرة على طول الطريق لعلّها تنسي نفسها هذا الجحيم الذي تعيشه على متن هذه المركبة ومع مجموعة من رجال الشرطة.

بعد حوالي خمس وثلاثين دقيقة وصلت سيارة الشرطة إلى المركز واقتيدت سلوى إلى الداخل بمرافقة شرطيين كانا يمسكان ذراعيها.

- يمكنك أن تستجوبها يا سيدي، إنها في مكتب الاستقبال.

أجاب المفتش وهو يقوم من كرسيه:

- أنا قادم !

كانت سلوى في تلك اللحظة تجلس على مقعد حديدي بينما يقف عون الشرطة أمامها حاملا بيده ملفًا أصفر كتب على غلافه الخارجي تاريخ يوم أمس.

أغلق العون باب المكتب تاركا الفتاة في مواجهة تحقيق مفتش الشرطة. مضت حوالي ساعتان من الاستجواب لم تفلح سلوى خلالهما بإخراج نفسها من فوهة الاتهام.

أكمل المفتش سماع أقوالها ثم طلب من مساعده اقتيادها إلى غرفة الاحتجاز ريثما يحوّل ملفها على المحكمة.

- ولكن يا سيدي، لا علاقة لي بهذا الأمر أبدًا !

- التحقيق الأولي أسفر عن تورطك باختفاء الضحية ب. أسيل وهي صديقتك الوحيدة، والدة الضحية قدّمت كما ترين أدلة مختلفة عن إدانتك باختفاء ابنتها، ستواصل محكمة التحقيق عملها وستعودين منزلك إن كنت بريئة كما تقولين.

***

فلاش باك

7

قبل عامين...

كلية العلوم، جامعة تونس

الساعة 10:35 صباحا..

ربيع 2017

- بأي لوحة ستشاركين يا سلوى؟

- لا أعرف يا أسيل، لا زلت أخمّن بين هذين اللوحتين ما رأيك؟

- لقد قلتِ لي بأنك تعرفين أعضاء لجنة التحكيم جيدا وأن أغلبهم ينتمي إلى مدرسة الرسم التعبيرية، إذن لوحة هذا الشيخ الذي يرعى أغنامه قد تكون هي الأنسب.

- هذا ما أظنه أيضا ولكني لا أزال مترددة.

نظّمت وزارة الشؤون الثقافية بمناسبة يوم العلم مسابقة ضخمة بين طلاب الجامعات تهدف إلى التعرف على مواهب الطالب التونسي في ميادين الفنون التشكيلية والدرامية والموسيقى. وما إن عُلق على لوحات العرض إعلان عن الجوائز التي ستكون من نصيب الفائزين راحت سلوى تجهز نفسها لعلّ الحظ يكون حليفها للظفر بالمرتبة الأولى، والتي شملت شهادة تقديرية من تقديم الوزير ومكافأة نقدية قدرها عشرة آلاف دينار بالإضافة إلى رحلة سياحية إلى تركيا لمدة أسبوع، وهي بالنسبة إلى سلوى جائزة قيمة تستحق المحاولة والاجتهاد.

اسمي سلوى عيادي من مواليد عام 1998 بمدينة تونس وأنا في السنة الثانية شعبة الرياضيات، قصتي مع الرسم بسيطة نوعا ما، بدأت الرسم لأول مرة عندما كنت في المرحلة الابتدائية وكنت وقتها مهتمة كثيرا برسم شخصيات ديزني، رسمت في المقام الأول دونالد داك والكلب بلوتو ثم انتقلت لرسم ميكي وبعض الشخصيات الأخرى. لم أكن عظيمة آنذاك لكني كنت الأفضل بين زملائي حتى أني قدّمت دروس رسم بسيطة لأصدقائي على أمل أن أتمكن من مساعدتهم في القيام بذلك، وهذا ما لفت لي الانتباه لفترة طويلة من الوقت.

واصلت الرسم لمدة عامين أو ثلاثة ثم توقفت كليا لانشغالي بأمور أخرى، لم أعد إلى الرسم إلا حين انتقالي إلى الجامعة وتعرفي على صديقتي أسيل والتي كانت سببا مباشرًا في عودتي إلى هوايتي القديمة من خلال زياراتنا المتكررة إلى المكتبات والمتاحف وهذا ما حفزني أكثر على العودة. دخلت بعدها إلى مدرسة تونس للفنون التشكيلية هنا في العاصمة، حيث وجدت أشخاصا يجيدون الرسم حقا ما دفعني للتعامل مع الأمر بجدية أكثر، بعدها كرست قدرا كبيرا من الوقت يوميا لممارسة الرسم وهي المرحلة التي ساعدتني بشكل كبير على تنمية قدراتي.

هذه أفضل لوحاتي بالنسبة إليّ، وهي أيضا اللوحة المحببة لدى الكثير من أصدقائي على الأنترنت. أتمنى أن تنال إعجابكم يا سيدي وشكرا لقدومكم إلينا.

- بالتوفيق لك، شكرا.

أعادت سلوى وضع الميكروفون في مكانه ثم نزلت مبتسمة من خشبة العرض وعادت إلى مكانها بين الحضور بجوار صديقتها أسيل.

- أحسنتِ يا سلوى لقد قمتِ بتقديم لوحتك على نحو رائع، ثم إنك تحسنين جيدا الكلام مع لجنة التحكيم.

- أشكرك يا أسيل أنت ترفعين من معنوياتي دائما. هل تعلمين! إن مروري لأكثر من مرة على ميكروفون الإذاعة ساعدني كثيرا في التخلص من خوفي أثناء الكلام خاصة أمام الناظرين إليّ. ولكني يجب أن أغوص كثيرا في ميدان الخطابة والإلقاء وأن أطور أكثر طريقتي في الكلام.

- لقد صادفت في أحد المرات داخل المكتبة المركزية لجامعتنا كتابا يتحدث عن فن الإلقاء والخطابة.

- حقا؟ هل لا تزالين تتذكرين مكانه؟

- نعم سأريك إياه.

بعد انتهاء العرض خرجت أسيل وسلوى من المدرج الذي أقيمت فيه المسابقة الفنية، ثم نزلا من السلالم المؤدية إلى الطابق الأرضي باتجاه الباب الخارجي للكلية.

كانت جامعة المنار تعج بالطلبة في ذلك اليوم. صادف الجو الربيعي لأحد أيام شهر أبريل موعد المسابقات الفنية وحملة للتبرع بالدم لفائدة مرضى السرطان بمستشفى صالح عزيز، ما جعل أروقة الجامعة وساحاتها تكتظ عن آخرها.

مـا إن أصـبحت أسـيل وسـلوى خـارج مبنى الكليـة، توقفـت أسـيل لبضـع ثـواني أعـادت فيهـا ترتيـب ملابسـها التي أفسـدتها جلسـتها الغير مريحـة على مقعـد ذلـك المـدرج، ثـم سـارت بخطـوات سـريعة ملتحقـة بصـديقتها. اجتازتـا باحـة وقـوف السـيارات المغطـاة بـالمرج الأخضـر على جوانبهـا والتي تنطلـق منهـا متاهـة مـن أشـجار السـرو الإيطـالي تعـانق الطوابـق العليـا للبنايـات الشـاهقة المنتشـرة بكثـرة حـول المكان.

كـان حـرم الجامعـة يغـطّ في ضـوء ربيعي جميـل. قبـل عشـرين يومـا كانـت درجـات الحـرارة في هـذا المكـان تقتـرب مـن الصـفر، فربيـع هـذا العـام حـل آتيًـا معـه جـزءا مـن الشـتاء خاصـة وأن هـذا الحي القريـب مـن قلـب العاصـمة يُعـرف دائمـا ببـرودة شـتاءه، لكـن سـرعان مـا منحـت حـرارة شـمس أبريـل لطلبـة الجامعـة ربيعـا لطيفـا ودافئـا بقـدر ما أتى متأخرا.

بينمـا عبـرت أسـيل الرصـيف متجهـة نحـو المكتبـة المركزيـة، توقفـت سـلوى تنظـر إلى حافلـة رُكنـت أمـام مبنى كليـة الحقـوق. اعتـادت العيـادة المتنقلـة التابعـة للمركـز الـوطني لنقـل الـدم أن تحـط رحالهـا مـرتين أو ثلاثـة خـلال كـل سـنة داخـل حـرم الجامعـة لجمـع أكيـاس الدم تلبية لحاجيات مرضى السرطان.

- هيـا يـا سـلوى لمـاذا توقفـتِ؟ لا تقـولي لي بأنـك تريـدين التبرع بالـدم ! سيستغرق هذا وقتا كبيرا دعينا من ذلك أرجوكِ.

- التبرع بالـدم لـه منـافع عظيمـة للجسـم وللـدورة الدمويـة الخاصـة بنا. هيّا لنقم بهذا معًا.

- لا لن أفعل.

- هيّـا، لا تظهـري خوفـك. لـن يؤلمـك كثيـرا فقـط ألـم خفيـف في البداية بسبب وخز الحقنة لكنه سرعان ما يزول.
- أرجـوكِ لا تلحّي عليّ. لقـد سـبق وأن قلـت لـكِ أن أمـي تمنعني مـن ذلك، إنها توصيني دائما بأن أتجنب كل ما قد يتسبب لي بجروح.
- ولكن لماذا؟ هل تعانين من مرض ما؟
- بصـدق، لا أعـرف شـيئا عـن ذلـك. فقـط أمـي تحـرص دائمـا على تـذكيري بتلـك النصـائح في كـل مـرة لا أدري لمـاذا، ثـم إنهـا تغضـب دائما عندما أريد أن أستفسر عن سبب ذلك الحرص المبالغ فيه.
- عجيـب أمـر أمـك، حسـنا لا داعي للتبرع إذن فلنسـرع للبحـث عـن الكتاب قبل استئناف الدراسة.
بعـد أكثر مـن سـاعة في الغـوص بـين رفـوف الكتـب خرجـت الطالبتـان مـن المكتبـة مسـرعتين باتجـاه الكليـة. كانـت سـاحة الجامعـة التي تهتز صـباحا كخليـة نحـل أصـبحت الآن خاليـة تقريبـا مـن جمـوع النـاس، فقـد عـاد الطلبـة إلـى المـدرجات وقاعـات الدراسـة لاسـتئناف محاضراتهم بعد صباح حافل بالنشاطات الفنية والثقافية.
بـالرغم مـن تعـرض أسـيل في عامهـا السـادس إلى حـادث حريـق داخـل مطـبخ منزلهـا العـائلي تسـبب في فقـدانها جـزءا مـن شـعرها وتشـوه رقبتهـا إلا أنهـا لا تـزال تتمتـع بجمـال أنثـوي يتوقـف عنـد تفاصـيله كـل مـن صـادف مرآهـا. لقـد حافظـت مـن خـلال دوامهـا على ممارسـة الرياضـة علـى قوامهـا الرشـيق: كتفـان واسـعان وخصـر نحيـف، سـاقان طـويلان يحمـلان جسـدها المختفـي داخـل سـروال قنبـي واسع.
كـان وجههـا أيضـا لا يـزال بـديعا على نحـو يصـعب للملتفـت تجاهلـه. زيـادة على عيناهـا اللوزيتـان بشـكلهما الحـاد، أضـاف اللـون الأخضـر

لهما جمالا مشعًا، أنف حاد وغمازتان تبرزان عند كل ابتسامة، لكنها كانت دائما ما تحاول إخفاء هذا الجمال بالتظاهر بإهماله. كانت تلبس سترة إيطالية طويلة ينسدل من خلفها شعرها الأشقر الداكن بحرية فوق كتفيها.

في طريقهما للعودة إلى الكلية شعرت أسيل فجأة بأن أحدا ما يتّبع خطواتهما. أدارت رأسها قليلا وألقت نظرة سريعة خلفها فارتسمت على وجهها ملامح التأفف:

- يا إلهي! لا ينقصنا الآن إلا هذا الأحمق.

- ماذا هنالك يا أسيل؟

- أنظري من وراءنا إنه ذلك الشاب الذي كان يدرس معنا في نفس الفوج.

- ألا يزال يتبعك إلى الآن؟

- للأسف نعم، رغم كل ما حدث لكنه لا يزال يتبعني دائما، لقد سئمت من تصرفاته هذه حقا.

كان محمد علي وهو زميل الطالبتين أسيل وسلوى شاب يكبرهما بعدة سنوات، بسبب حبه لأسيل أصبح أكثر طالب يحترس منه زملاءه داخل الصف وذلك بسبب الأفعال المجنونة التي يقوم بها في كل مرة لإظهار حبه لأسيل. كان آخر فعل قام به منذ شهر تقريبا حيث جلب معه قارورة بلاستيكية إلى الكلية تحتوي داخلها على حمض السلفوريك الخطير وهو السائل الذي يدخل في صناعة بطاريات السيارات، ثم هدد بشربها إن واصلت في كل مرة قيامها بهذا التجاهل القاتل له.

أدى فعله هذا لإحالته على مجلس التأديب وتقديم آخر إنذار له من قِبل إدارة الكلية، مع تغيير توقيت دوامه كي لا يتوافق مع دوام أسيل محاولة في إبعاده عن الفتاة قدر الإمكان.

كانت أسيل تبدع في ممارسة تجاهلها لمحمد علي بحيل وطرق ذكية يصعب عليه إدراكها، وهذا بسبب كرهها الشديد له ولمظهره الذي لا يسر كل من وقع عليه نظره. فزيادة على معاناته مع مرض الهاق، فقد اعتاد دائما أن يظهر بين الطلاب بمظهر بائعي المخدرات والمجرمين خاصة وأن ملامحه كانت توحي على ذلك أيضا رغم أنه لم يكن يتعاطى أي نوع من ذلك ولا يقوم بأي جريمة، لكنه كان يعشق ذلك النوع من اللباس والظهور بتلك الهيئة. كان يميل دائما لارتداء سراويل فضفاضة بحزام مطاطي مع سترة رياضية وحذاء بلون أحمر وأحيانا باللون الوردي، بالإضافة إلى قبعة شمسية يُدير في غالب الأحيان مقدمتها إلى الوراء. كان هذا محاولة منه لتعويض ذلك الكم الهائل من الشعور بالنقص وعدم الثقة بالنفس وفي الوقت نفسه اتخذه أسلوبا لتجنب سماع عبارات محبطة وتلقي نظرات جارحة. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة بالنسبة إلى محمد علي لصد كل تلك الأوجاع التي يتلقاها يوميا خلال حياته.

عند بلوغه العام العاشر فقد ثقته بنفسه تماما، حياة محطمة ونظرات خائفة، والشعور بالنبذ والرفض والتنمر ممن حوله، وطفولة ليست كالتي يتمتع بها بقية أقرانه. أدى به مرضه الجلدي ليصبح أكثر تلميذ في مدرسته يتعرض للسخرية يوميا.

حاولت أسيل وسلوى زيادة سرعتهما في المشي لكن محمد علي كان أسرع، لحق بهما ثم بادرهما بالكلام مباشرة:

- صباح الخير يا أسيل ! أين أنت أصبحت لا أكاد أراك في الكلية أأنت بخير؟

لم ترد أسيل على كلامه وتابعت مشيتها دون أن تنظر إلى وجهه.

- هي بخير ولا تريد سؤالا منك.

أجابته صديقتها سلوى بكلمات سريعة حاولت من خلال ذلك محاشاته بسرعة.

- كانت تلك الكلمات جارحة لمحمد علي. توقف قليلا في مكانه ثم من شدة غضبه أسرع باتجاههما وأمسك بذراع أسيل بقوة وأدارها إليه. كانت عيناه تشع غضبا وحزنا، أدت تراكمات تجاهلها له وعدم مبالاتها إليه إلى دخوله في حالة هستيرية.

- أنظري جيدا إليّ. هذه آخر مرة لتجاهلك هذا، وآخر مرة أنبهك بهذا، لقد سئمت من كل هذه الأوجاع بسببك. أنت سبب كل ما أعاني منه داخل وخارج هذه الجامعة وقد أعذر من أنذر، إن كان هذا الحب سيقودني إلى الجنون فمرحبا بمستشفى المجانين لي ومرحبا بمستشفى العظام لك. هل فهمتي؟

ودفع بأسيل بيده لتسقط على الأرض وهي صامتة من شدة صدمتها بما سمعته ثم غادر المكان مسرعا.

* * *

سيارة الإسعاف

8

استندت أسيل إلى كرسيين واضعة عليهما كلتا يديها. حاولت أن تهدئ من روعتها وأن تستسلم إلى ما سيدور بين هذا الشرطي وصاحب المحل من حديث.

جلس الملازم على طرف إحدى الطاولات وشبّك يديه تحت ذقنه، ما أظهر ملامح وجهه بحدّة بالغة:

- نعم تفضل، أنا في الاستماع!

- لا يجب علينا أن نكون صارمين أحيانا يا بني.

خاطبه العجوز عبد الرحمان بتأنّي ثم أكمل قائلا:

- أنا أعلم أن طبيعة عملك تلزمك التعامل بصرامة دومًا، لكني أدعوك اليوم لتكون حليما في تفهمك لهذه الشابة المسكينة لأن لا ذنب لها في كل ما حدث بل هي ضحية على ما أظن.

فكّر الشرطي قليلا فيما قاله هذا العجوز ثم أدار برأسه مطيلاً النظر في وجه الشابة الواقفة أمامه وقال:

- حسنا، وما قصة غرابة قدومها إلى هنا؟

عدّل العجوز من جلسته ثم بدأ بسرد القصة كاملة. أمضى حوالي عشر دقائق في التحدث وهو يلاحظ الشرطي ينظر إلى مظهر الفتاة بين حين إلى آخر وكأن شيئا ما أثار استغرابه. كان قد لاحظ جرحا صغيرا على ذراعها الأيمن، بالإضافة إلى وجهها الشاحب والمصفر وذلك الإرهاق الشديد البادي عليها.

مـا إن أكمـل سـماع القصـة سـارع مباشـرة في سـحب قلـم وكتيـب صـغير مـن جيبـه. دوّن على ظهـره بعـض الملاحظـات ثـم اسـتدار يكلّـم أسيل:

- تبدين مرهقة جدا هل أنت بخير؟

- قلـيلا يـا سـيدي، أشـعر بتعـب شـديد ورأسـي يـؤلم منـذ أن استيقظت من النوم.

- يجـب عليـك زيـارة الطبيـب أولا، سـأطلب سـيارة إسـعاف لتنقلـك إلى المستشفى لنطمئن على صحتك.

أخرج هاتفه وأجرى اتصالا:

- المـلازم عبـد القـادر معـك، مـن فضـلك أرسـل لي سـيارة اسـعاف فـورا، أنـا في حديقـة صـوفيا بالضـبط داخـل محـل بيـع الأكـلات السريعة في مدخل الحديقة مباشرة.

أغلق الخط ووضع هاتفه داخل جيبه ثم أكمل حديثه:

- وما هو أول مكان ذهبتم إليه بعد ذلك؟

تنهدت أسيل ثم أجابته:

- عنـد صـعودي إلى تلـك السـيارة لـم أتـذكر شـيئا ممـا حـدث بعـدها، تعرضـت إلى تعنيـف على رأسـي مـن قبـل أولئـك الرجـال ثـم فقـدت وعيـي بعـدها إلـى أن اسـتيقظت علـى صـورة هـذا الرجـل العجـوز الذي آواني داخل هذا المحل. لقد حاول تقديم المساعدة لي.

عنـدما أكملـت أسـيل كلامهـا نهـض عبـد القـادر مـن مكانـه واتجـه نحـو البـاب الخـارجي لإلقـاء نظـرة، كـان المطـر يسـتعد للكـفّ عـن الهطـول

وأن السماء بدأت باستعادة صفائها من جديد، ما أظهر مدينة الجزائر أكثر لمعانا وبياضا وكأن خيوط الأمطار هطلت لتطهّر ساحاتها ومبانيها.

سحب هاتفه من جيبه ونظر إليه ما يزيد عن عشر ثواني حتى تملكه شعور من الحزن والقهر. كانت على خلفية هاتفه صورة ابنه الوحيد الذي خسره من بين يديه حين قررت زوجته الابتعاد عنه والسفر إلى الخارج.

- أتُراه بخير الآن؟ لا أثق أبدا في تلك المرأة، قد تتركك يا بني وتقلع خلف رغباتها ونزواتها الصبيانية التي لا تمت الأمومة بصلة.

شعر بموجة من الغضب تندفع من بطنه نحو حلقه حين تذكر ملامحها، لم يكن حب زوجته من النوع الذي يُشعره بالارتياح، بل عاطفة جارحة تدفع كل مشاعر القلق والحزن والغضب نحو القلب بسبب تلك الممارسات التي تقوم بها والمستنبطة من الثقافات الغربية التي تؤمن بها على غرار ملابسها الضيقة وخرجاتها اليومية واتصالاتها المتكررة مع أصدقائها وزملائها، وما يقابل ذلك من إهمال لواجباتها المنزلية ولدورها كزوجة ترعى ابنها وزوجها.

لم تكن ظروف عبد القادر العائلية هذه عائقا أمامه، فقد نجح في فترة وجيزة أن يجد لنفسه مكانا رفيعا في صفوف الشرطة القضائية لولاية الجزائر، كان خبيرا جيدا بالميدان. نجح في حل الكثير من القضايا الهامة، كما خصص لنفسه شعبة لم تكن

بالسهلة أبدا وهي محاربة المخدرات، لقد كان لا يتردد للحظة في نسج خيوط وعلاقات مع الكثير من المنحرفين وتجار المخدرات الذين لا ينصح بالتعامل معهم، كان يملك من الكاريزما والشجاعة ما أهّله للتعامل مع هذه الشريحة الخطرة وكذا في الخوض وسط هذه القضايا الصعبة بسهولة وسلاسة.

لم يكن عبد القادر من أولئك الذين يفكرون كثيرا في الماضي، لكن لا مناص من الاعتراف بأن شوقه لابنه الوحيد صار هاجسًا يلازمه دوما.

انتفض على وقع رنّة هاتفه، ظنّ أن مشكلة ما قد حدثت إلا أن المتصل لم يكن غير سائق سيارة الإسعاف.

- ألو نعم !

كان صوت السائق بالكاد يُسمع بسبب أزيز السيارات وصوت صفارات الإنذار المنطلقة من البوق العلوي لسيارة الإسعاف.

- نحن أمام باب الحديقة يا سيدي، أين أنت تحديدا؟

أغلق الملازم الخط دون أن يضيف كلمة ثم أسرع يركض إلى الخارج. ما إن اقترب من سيارة الإسعاف راح يلوح بيده ليراه السائق. التفت إليه فأشار بيده ليتقدم باتجاهه واللحاق به بشكل سريع.

عاد عبد القادر إلى حيث تتواجد أسيل وذلك الرجل العجوز. صعد أدراج المحل الثلاثة ثم نادى بصوت مرتفع:

- هيا إلى الخارج، سيارة الإسعاف هنا.

تقدم العجوز وهو يساعد الفتاة على النزول من أدراج المحل.

- هيا لا وقت لدينا !

تكلم الشرطي بحزم وهو يصعد إلى المقعد المجاور للسائق.

- فتح العجوز باب سيارة الإسعاف الخلفي لتصعد أسيل وهي ترمقه بنظرات بريئة وكأنها تريد أن تشكره على طيبته ومساعدته لها. قام بتوديع الفتاة آملا لها بالشفاء والسلامة ثم أغلق باب السيارة وعاد إلى محله.

**

سارت سيارة الإسعاف مسرعة باتجاه الجهة الشرقية لمدينة الجزائر أين يتواجد المستشفى الذي سيتم فيه إخضاع أسيل لفحوصات طبية حسب ما أراده الملازم عبد القادر. لكن سرعان ما أخفض السائق من السرعة عند اصطدامهم بموكب لا تُرى نهايته من السيارات المتوقفة بسبب الازدحام.

بقيت سيارة الإسعاف متوقفة تنتظر انطلاق السيارات لإكمال طريقها باتجاه المستشفى.

- أيها السائق أعد تشغيل صفارة الإنذار لما أطفأتها؟

تكلم الشرطي منفعلا بسبب هذا الازدحام الذي واجهه في هذا الوقت بالذات، والذي تعاني منه وسط المدينة يوميًا خصوصا في أيام بداية الأسبوع.

انتفضت أسيل على وقع كلام الشرطي ثم عدّلت من جلستها بصعوبة وراحت تتأمل من خلال زجاج السيارة المنظر الذي

صادفها. كان مبنى البريد المركزي بلمسته الأندلسية القديمة يبدو منتصبا بكل صلابة على واجهة البحر الأبيض المتوسط، محتلا بذلك المشهد بأكمله ولتتشكل من خلاله إحدى أكثر الأماكن شهرة في مدينة الجزائر.

شغّل السائق صفارة الإنذار الخاصة بالإسعاف فانطلقت السيارة بشكل ملتوي متجاوزة بذلك جميع السيارات التي انتقلت ببطء إلى حافة الطريق تاركين لها أولوية المرور.

تنهدت أسيل ثم أمالت رأسها لتتكئ به على زجاج النافذة، كانت قد امتزجت دموع القلق والحزن بحبات المطر المتساقطة على وجهها. كان جسدها يرتعش بشدة، ترنحت قليلا ثم فجأة انهارت نائمة على زجاج النافذة من شدة الإرهاق.

ذعر الشرطي ثم صاح مخاطبا سائق الإسعاف:

- أسرع أيها السائق أرجوك! لقد أغمي على الفتاة.

بعد خمس دقائق تقريبا وصلت سيارة الإسعاف أمام المستشفى الجامعي لمدينة الجزائر: مستشفى مصطفى باشا.

توقف سائق الإسعاف أمام الحاجز الحديدي. ثم أطلّ برأسه من نافذة السيارة:

- هاي! هل من أحد هنا؟

بالرغم من كثرة الزائرين وتوافدهم على المستشفى إلا أن الحارس لم يكن موجودا أمام الباب.

أعاد سائق الإسعاف هتافه بصوت مرتفع باتجاه المحرس.

- هاي! افتحوا لنا الباب.

خرج العون المكلف بحراسة باب المستشفى الرئيسي ملقيا التحية على السائق.

خاطبه الشرطي قائلا:

- هيا افتح الباب لدينا مريضة هنا !

أزاح العون الحاجز الحديدي للمدخل ثم أشار للسائق بالتقدم إلى داخل فناء المستشفى.

- توقف هنا المكان مناسب.

خاطب الشرطي سائق الإسعاف ثم أكمل أوامره:

- أسرع بإحضار من يساعدنا في حملها إلى الداخل.

دخل السائق مهرولا إلى بهو المستشفى ثم خرج بعد دقائق قليلة ومعه ثلاثة من الممرضين يجرون حمّالة المرضى. قامت ممرضتان بحمل الفتاة ووضعها على الحمالة وكأنها جثة هامدة، لقد كانت فاقدة للوعي تماما.

* * *

التحـف

9

الساعة 11:40...

تونس العاصمة.

- فنجان قهوة وقارورة مياه صغيرة.

- دينارات يا سيدتي!

- تفضل، مع السلامة.

خرجت السيدة عزيزة من المقهى بتعجل نحو موقف السيارات. انطلقت بسيارة "الفولكسفاغن" من طراز "بولو" قديمة الصنع من الشارع الضيق ثم شقت طريقها باتجاه حي الرياض على الطريق السريع المحاذي للبحيرة آملة أن تصل إلى مكان عملها في أقل وقت ممكن. كانت تمشي بسرعة متباينة، تزيد من سرعة السيارة تارة ثم تخفضها تارة أخرى حين تتذكر اختفاء ابنتها.

تمارس السيدة عزيزة منذ أزيد من عشر سنوات مهنتها في تجارة التحف الفنية وقطع الأنتيكة وكل ما هو قديم ومر عليه زمن طويل. كانت هذه المهنة في سنوات طفولتها عبارة عن ميول فقط اتجاه الأشياء القديمة، كانت تعشق رؤيتها وتشعر بلذة كبيرة في ملامستها وملاحظة تفاصيلها، ثم تحولت مع مرور الأيام إلى هواية جمعت من خلالها عددا لا بأس به من القطع. عند تفتيشها لخزانة جدها المهجورة ذات يوم عثرت على أول مجموعة من التحف الثمينة بالنسبة إليها: ما يقارب ثلاثين رسالة قديمة تحمل

على غلافها طوابع بريدية فرنسية وبريطانية وإسبانية تعود إلى خمسينيات القرن الماضي، بالإضافة إلى جهاز راديو من ماركة "Crosley" لا يزال يصارع الزمن باحتفاظه على مظهره الكامل ولم يُعرض لأي كسر، ثم تعمقت في تفتيش الخزانة أكثر فعثرت على صندوق خشبي صغير يحتوي بداخله على عشرات الأوراق النقدية القديمة من دول أوروبية مختلفة، وعلى ساعة يدوية جلدية كان قد تحول زجاجها إلى اللون الأصفر.

تطورت هوايتها من يوم لآخر حتى أصبحت القطع الفنية التي بحوزتها لا تقوى على إيجاد مكان لها وسط تلك الغرفة الضيقة التي وضعتهم فيها، ساعات حائطية ويدوية وكاميرات تصوير قديمة ومجموعة كبيرة من أجهزة الراديو والمذياع، وقطع فخار وأواني منزلية يعود تاريخها إلى عقود طويلة، بالإضافة إلى جناح واسع خُصص لوضع الكمية الهائلة من الطوابع البريدية وقطع النقود الحديدة والورقية لجميع دول العالم تقريبا. دفع هذا الحجم الكبير لتلك التحف بالسيدة عزيزة لتحفيزها على فكرة إنشاء متجر يكون لها كمكان لممارسة هوايتها المفضلة وكمصدر رزق إضافي في آن واحد.

يقع المتجر في وسط العاصمة بحي الرياض وفي مكان يعج بالمارة والسياح القادم أغلبهم من أوروبا. حين فكرت في أول الأمر بتحويل هذه الهواية إلى تجارة لم تكن تعلم أن هذه الفكرة قد تجلب لها كل هذا النجاح، استحسن الزائرون والسياح فكرة هذا المتجر

خاصة مع التجديد الدوري للقطع المتواجدة على الرفوف واستبدالها في كل مرة بقطع أخرى كانت تجلبهم حديثا أو تبادلهم بقطع أخرى مع الهواة الذين تربط معهم اتصالات دائمة حول هذا المجال.

كانت السيارة تشق طريقها ببطء بين الشوارع الضيقة للعاصمة.

رنّ الهاتف الموضوع فوق المقعد الجانبي للسائق فألقت السيدة عزيزة نظرة خاطفة على شاشة الهاتف لمعرفة من المتصل، مدت يدها إليه ثم فتحت الاتصال:

- ألو! أهلا بك.

كان أحد أصدقاء عزيزة على الهاتف مخاطبا إياها:

- كيف تمت الصفقة؟ لدي شعور أنكِ قمت بعمل جيد!

- لقد تم الاتفاق على العرض بشروط وضعتها بنفسي وأغلقت كل سبل النقاش حولها، كما أن الصفقة انتهت بزيادة حوالي 30 بالمئة من المبلغ الذي اتفقنا عليه ليلة البارحة.

- هل أنت متأكدة من أنه رضي بأكثر من المبلغ الذي اشترطناه؟

- أكثر من متأكدة. لقد لمست من صوته أنه متلهف لقبول أي عرض أطلبه لهذا رفعت المبلغ لأعلى.

- أحسنت أيتها الماكرة. حسنا أنا في العمل الآن سنكمل حديثنا في المساء.

أغلقت السيدة عزيزة اتصالها ونظرت إلى وجهها في مرآة السيارة الأمامي، فجأة اختفت ملامح الفرح البادية على وجهها وحلت

محلها مشاعر مختلطة من الحزن والقلق لتتسرّب بعدها من عينها قطرات من الدموع فوق خديها. كانت تشعر وكأن سكينا يشقّ قلبها بقوة إلى نصفين، إنه إحساس الأمومة الذي لم ولن يتركها تمارس يومياتها بأمان، الأمر الذي دفعها إلى تغيير طريقها وتتجه إلى منزلها لتجلس مع نفسها قليلا ومعرفة ما الذي يجب عليها فعله.

***

لغز زمرة الدم

10

المركز الاستشفائي الجامعي مصطفى باشا
الجزائر العاصمة...

بعد حوالي ساعة من الغياب فتحت أسيل عينيها أخيرا، لا زالت تشعر بذلك التعب الشديد الذي ظلّ يرافقها طيلة اليوم منذ استفاقتها صباحا. أدارت رأسها يمينا وشمالا متفحّصة المكان حولها. كان عبارة عن غرفة هادئة بجدران نظيفة ونوافذ عريضة نوعا ما، عليها ستائر بيضاء اللون تسمح بتسرب أشعة الشمس داخلها.

أسندت ظهرها إلى الوسادة وراحت تتأمل جيدا لتتأكد من المكان بأنه إحدى غرف المستشفى. نهضت من مكانها بصعوبة وتعب كبيرين ثم مشت لتصل إلى النافذة، كان المنظر في الخارج مبهرا بالنسبة إليها: ميدان كبير تتوسطه نافورة مائية تتدفق منها في كل لحظة خيوط مائية بحركات انسيابية جميلة، تطوف حولها جموع كبيرة من السيارات والراجلين ومحاط ببنايات شاهقة بيضاء اللون ما زادت من جمالية المنظر أكثر، إنها ساحة الوئام المدني أو كما تعرف لدى العامة بساحة أول ماي، وهي مفترق طرق في قلب العاصمة تربط شوارع رئيسية من المدينة ببعضها البعض.

- صباح الخير يا آنسة!

التفتت أسيل خلفها متفاجئة. دخلت طبيبة تبدو في عقدها الرابع من العمر بمئزر أبيض وتضع سماعات طبية حول رقبتها.

- أتمنى أن تكوني بخير الآن، ولكن لا يجب أن تنهضي من مكانك فأنت متعبة جدا، هيا يا صغيرتي ارجعي إلى سريرك ريثما نعرف نتيجة التحاليل.

- تحاليل؟ تحاليل ماذا يا دكتورة وما الذي حدث لي؟

- لا تقلقي كثيرا، أظن أنك فقدتي الكثير من الدم ولا ندري ما السبب الآن.

- لا أدري ما أصابني، أنا قلقة ومتعبة جدا!

- ستكونين بخير هنا لا تقلقي. هيا عودي مكانك وسأعود إليك بعد قليل.

انتظرت الطبيبة عودة أسيل إلى مكانها ثم خرجت من الغرفة مهرولة باتجاه مخبر التحاليل. كان الشرطي في انتظارها ثم بادرها بسؤاله مباشرة:

- كيف حال المريضة يا دكتورة أهي بخير الآن؟

- لا تزال متعبة قليلا، لقد خسرت الكثير من الدم. ظننت في بادئ الأمر أنها تعرضت لنزيف دموي داخلي بسبب انخفاض حرارة جسمها خاصة وكما قلت لي أنها قضت ليلتها نائمة في الخارج، لكن الجرح على ذراعها الأيمن هو آثار إبرة طبية. لقد سُحبت منها كمية كبيرة من دمها لا تفسير غير ذلك.

- نعم لاحظت ذلك الجرح أيضا، بالإضافة إلى شحوب وجهها واصفراره.

- التحاليل التي يقوم بها زملائي ستؤكد لنا عن هذا الأمر.

تقدمت الطبيبة عبر الرواق ثم واصلت كلامها:

- هيا اتبعني إلى المخبر.

مشا الملازم وهو يدسّ يده في جيبه باحثا عن علبة السجائر قبل أن يتذكر أنه داخل المستشفى ولا يجب عليه أن يدخن بين غرف المرضى.

تقدم قليلا فرأى نافذة مفتوحة تطل على فناء المستشفى فلم يتردد للحظة بإخراج رأسه وتناول سيجارته بعجل. وضع لفافة التبغ بين أصابعه ثم رماها بعيدا ولحق بالطبيبة مسرعا.

أكمل الملازم للطبيبة حكاية تلك الفتاة حسب رواية ذلك الشيخ وقص عليها القصة كاملة وهما في الطريق إلى مخبر التحاليل الطبية.

عند وصولهما شرعت الطبيبة في قراءة نتيجة التحاليل بالكثير من الحيرة والتعجب الباديان على وجهها:

- غير ممكن! لم أتوقع هذا أبدا.

خاطبت الطبيبة الملحق المكلف بالتحاليل المخبرية بوجه يمتلأ قلقًا ثم وجّهت كلامها إلى الملازم:

- الآن يمكننا القول بأن الأمر أصبح أكثر غرابة وليس كما ظننا في بادئ الأمر. لقد سحبت منها كمية قليلة فقط من دمها وهي ليست بالكمية التي تُسبب كل ذلك الارهاق والشحوب على الوجه.

- وماذا يعني هذا؟

- لا أعلم تحديدا حضرة الشرطي، سنقوم أولا بإعادة فحص فصيلة دمها.

طلبت الطبيبة من ملحق المخبر بفحص كمية الدم المنزوعة سابقا وإعداد تقرير حول ذلك في أسرع وقت ممكن، فيما انطلقت هي باتجاه الغرفة التي تتواجد فيها أسيل للاطمئنان عليها وإعادة فحصها من جديد.

بعد أكثر من عشرين دقيقة وهي داخل غرفة أسيل انتهت الطبيبة من فحص الفتاة التونسية. اهتز هاتفها داخل جيب مئزرها وهي بصدد الخروج من الغرفة، نظرت إلى الرقم الظاهر على الشاشة فإذا به رقم هاتف مخبر التحاليل الطبية. فتحت الخط مباشرة بعد الرنة الأولى وتركت المتصل يتكلم:

- لقد أكملنا إعداد التقرير الخاص بتحليل الدم يا دكتورة.

أجابت وهي تخرج من الغرفة:

- لا تفعل شيئا أنا قادمة إليك!

دخلت الطبيبة إلى المخبر حيث يتواجد الشرطي وملحق المخبر ومساعداه ثم شرعت مباشرة في قراءة نتيجة الفحص بتركيز كبير حتى قاطعها الشرطي قائلا:

- هل أسفر هذا الفحص عن شيء ما يا دكتورة؟

أومأت الطبيبة برأسها مجيبة إياه دون أن تنظر إلى وجهه. وضعت ورقة الفحص على المكتب ثم جلست لبرهة من الزمن على الكرسي وهي صامتة يجتاحها بحر من التعجب والحيرة. تنهدت بعمق ثم رفعت رأسها إليهم مخاطبة:

- لقد اتضح الأمر أخيرا. قد لا تعرفون أن هناك نوعا من فصائل الدم يمكن أن ينقذ حياة أي شخص! وهي فصيلة دم نادرة جدا نظرا لأنها تتدفق عبر عروق عدد محدد من الأشخاص حول العالم، هذا يعني أنها ثمينة جدا وهذا ما يعني بدوره أن الشخص الحامل لهذه الفصيلة سيكون محط أنظار المجرمين إذا علموا بنوع الزمرة الدموية التي يحملها.

شعر الملازم بالتعجب لدى سماعه كلمات الطبيبة:

- وهل تلك الفتاة واحدة من هؤلاء الأشخاص الذين يحملون فصيلة الدم هذه؟

- نعم حضرة الشرطي، يقدر عددهم على العموم بحوالي 40 إلى 50 شخصا فقط حول العالم على مدار خمسين سنة الماضية، تم اكتشاف هذه الفصيلة في عام 1961 وتسمى بفصيلة الدم الذهبي.

- الدم الذهبي؟

- نعم الدم الذهبي، وسميت كذلك لندرة وجودها ولقدرتها على إنقاذ حياة الناس، فحامل هذه الزمرة الدموية باستطاعته أن

يتبرع للمرضى الميؤوسين من حالاتهم من ذوي نظام الدم الشائع المعروف بنظام Rhésus وإنقاذ حياة الملايين من أصحاب فصائل الدم النادرة الأخرى. اسمها العلمي هو Rh-Null ويعني هذا بأن فصيلة الدم هذه لا تحتوي على نظام الدم الكامل وتفتقر إلى المستضدات التي يمتلكها حوالي 99 بالمئة من الناس أي إلى أكثر من 60 مستضد.

ازداد حماس الملازم عبد القادر اتجاه هذا الموضوع:

- وماذا إذا احتاج هؤلاء الناس يوما إلى الدم؟

- المأزق الذي يمكن أن يقع فيه أصحاب هذه الزمرة هو أنهم كغيرهم من الناس لا يمكن أن ينقل إليهم دم إلا من نفس الفصيلة، ولأن فصيلة دمهم نادرة فمن الصعب عليهم إيجاد عدد كافي من المتبرعين، ولحسن حظ تلك الفتاة أنه قد تم نزع كمية قليلة فقط من دمها وإلا فمن شبه المستحيل إيجاد شخص يمكنه التبرع لها بالقليل من دمه.

- ولكن! ما الدافع لنزع كمية قليلة فقط بما أن فصيلة دمها ثمينة ونادرة؟

تساءل الملازم وهو يدوّن ملاحظات على دفتره الصغير. ثم أكمل كلامه:

- لو وضعت نفسي مكان الفاعل لقمت بنزع أكبر كمية ممكنة، فكبر الكمية المنزوعة تعني كبر المبلغ الذي سأتحصل عليه من بيع دمها أليس كذلك!

- وهـذا مـا يـدعوا للغرابـة حقـا، ولكـن هـذا في حالـة افتراضـنا أن الغرض من اختطاف هذه الفتاة هو سرقة دمها لا لغرض آخر!

- فهمـت مـا تريـدين الإشـارة إليـه يـا دكتـورة! أعتقـد أن فتـاة تحمـل فصـيلة دم ثمينـة كهـذه لـن يكـون الهـدف مـن وراء اختطافهـا أمـرا آخـر. أعـرف جيـدا تفكيـر العصـابات الإجراميـة، فالقاعـدة التـي يتبناهـا هـؤلاء هـي اسـتهداف فقـط النقطـة التي تجلـب أكبـر قـدر ممكـن مـن الأمـوال دون تضـييع الفرصـة في أمـور أخـرى يمكنهـا جلـب القليـل أو لهـدف آخـر غيـر مـادي، ثـم مـا الـداعي لنـزع الـدم أصـلا إذا افترضنا أن الغرض من عملية الاختطاف ليس سرقة الدم؟

أغلق الملازم دفتره ووضع القلم في جيبه ثم تابع كلامه:

- حسـنا، يجـب أن أذهـب الآن إلى غرفـة أسـيل. لـدي بعـض الأمـور أريـد إجابـة لهـا لإرسـال تقريـر إلـى زملائـي داخـل مركـز الـشرطة ومباشـرة التحقيـق حـول هـذه القضـية التي تبـدو غامضـة حتى الآن، سـأعود إليـك لمعرفـة معلومـات أخـرى قـد أن تسـاعدنا في فـك لغـز هذه الفتاة المسكينة.

- حالتهـا الصحية في تحسـن الآن لكـن نفسـيتها لا تـزال منهـارة تمامـا. أرجوا أن تكون أسئلتك خفيفة عليها !

- لا تقلقي بشأن هذا يا دكتورة. سأقوم فقط بعملي.

* * *

رسالة من مجهول

11

كان الملازم عبد القادر يخرج من غرفة أسيل بعد أن أنهى كامل حواره معها. لم يستطع أن يجمع من المعلومات عنها وعن عائلتها الصغيرة سوى القليل: كانت الأم ممرضة في إحدى المصحّات الخاصة بمدينة بنزرت شمالي البلاد، ثم تحولت إلى مهنة التجارة بعد ست سنوات من العمل، وهي طليقة منذ مدة طويلة من رجل كانت زميلته في العمل، عمِل أبوها طبيبًا في المصحة نفسها ثم غادر البلاد بعد طلاقهما.

هذا فقط ما تملكه أسيل من معلومات حول أبيها فهما لم يلتقيا منذ أن كانت رضيعة، على عكس أمها التي تعيش معها حاليا.

لم يكن عبد القادر فيما يظهر أن يتوقع منها غير تلك الأجوبة، وما زاد من خيبته أكثر أنه توقع أن تكون على علاقة مع أحد أو تعرف شخصا واحدا على الأقل من قاطني مدينة الجزائر، فالتوصل إلى هذا الشخص سيكون من دون شك بداية حل هذه القضية وفك شيفرة هذا الاختطاف المحيّر. وحسب التحقيق الذي أجراه مع الفتاة استطاع أيضا التأكد بأنها لا تعلم بقضية زمرة دمها النادرة ولم تسمع بها من قبل، وهذا ما أدّى إلى توسيع دائرة الاتهام إلى حد يستحيل فيه التشكيك بشخص معين، ما زاد من شدة تعقّد هذه القضية.

توقف قليلا أمام باب الغرفة ثم أخرج دفتره من جيب سترته وأخذ ينظر إليه مليّا.

خاطب نفسه بصوت خافت:

- لا بأس! سأكتفي بهذه المعلومات.

ثم التقط صورة بهاتفه النقال لما دونه على الدفتر وقام بإرسالها عن طريق البريد الإليكتروني إلى زملاءه داخل مركز الشرطة.

لبث صامتا لبرهة من الوقت وهو غارق في تفكيره العميق إلى أن قطع صوت الطبيبة استغراقه:

- عفوا يا حضرة الملازم. هل يمكنني معرفة أين وصل تحقيقك حول القضية؟

- نعم يمكنك ذلك، لكن لا يزال كل شيء كما وُضع على الطاولة. قضية من دون دليل واحد من الصعب فك خيوطها في وقت قصير وبالاعتماد على رجال الشرطة فقط. يجب تنسيق الجهود مع هيئات أخرى، العمل متواصل لحد الآن، لقد أرسلت ما استطعت إلمامه حول هذه القضية إلى المركز في انتظار ما سيصل إليه الزملاء.

- سينجح زملاؤك في فك القضية.

- نأمل ذلك.

تنهّد عبد القادر ثم مشا متجها إلى الشرفة المطلة على الفناء الخلفي للمستشفى ليهدئ من نفسه قليلا بتناول بعض السجائر.

كان الجو قد بدأ بالاعتدال واختفت معه غيوم الصباح. نظر من خلال الشبّاك الحديدي للشرفة إلى الشمس المائلة رويدا رويدا من منتصف السماء نحو جهة الغروب وهي تبعث ببريقها فوق مياه البحر وكأنها نجوم ذهبية فوق تلك الأمواج الهادئة.

أمسك الملازم لفافة السجائر المتبقية بأصابعه وحاول أن يقذفها من بعيد باتجاه حاوية النفايات في الخارج، اصطدمت اللفافة بالحافة ثم سقطت خارجا بجانب الحاوية.

الحظ ليس حليفه اليوم..

قضية معقدة، رأسه يؤلم منذ الصباح، قلة النوم، قلب يعتصر شوقا لإبن يعيش خلف ذلك البحر المقابل في بلاد لا يعلم أهي خير له أم شر.

سحب هاتفه من جيبه وبقي متأملا صورة ابنه التي على الخلفية، وفجأة تذكر كل تلك اللحظات والأيام السعيدة التي عاشها بالقرب من فلذة كبده.

استعرض آخر ما التقطه من صور رفقة ابنه وبقي يتفرج عليها تاركا شريط الذكريات يمر عبر مخيلته. إنها أيام حلوة بحق بقدر ماهي مؤلمة اليوم.

منذ انقطاع علاقته مع زوجته ظلّ عبد القادر منكفئا على نفسه دائما، لا يغادر منزله كثيرا ولا يتحدث مع أحد عبر الهاتف، لا يذهب لأي مكان بغية التنزه أو قضاء أوقات جميلة، لا يزور أحدا

سوى أن يخرج فقط لقضاء ما هو مهم ثم يعود إلى منزله. لقد جعل منه فراق ولده شخصا منطويا على نفسه.

كان كلما أراد إعادة بناء حياة جديدة شاوره إحساس فلذة كبده، لا يزال حنينه يسيطر عليه ولا يدري ما الذي يجب فعله اليوم، فسنتان حتى الآن قد مرت على تفكك أسرته الصغيرة إلا أنها لا تزال غير كافية على تغيير أي شيء داخله.

رغم كرهه الشديد لزوجته السابقة كان يراوده في بعض لحظات ضعفه تفكير بالسفر لمحاولة استرجاعها واسترجاع ولده، لكنه سرعان ما يستفق ويقوم بطرد تلك الفكرة السيئة من عقله. فحجم الآلام التي يعيشها اليوم هي أهون لديه من مرارة تلك الأحاسيس التي عاشها بالقرب منها، ولابد أن أوروبا وشوارعها قد زادت من فتح باب الحرية لها وتعميق نمط العيش الذي تهواه تلك المرأة.

بينما كان عبد القادر غارقا في تفكيره رنّ هاتفه وأيقظه من شروده الطويل.

- ألو نعم! لا أنا في الشرفة لم أغادر بعد، حسنًا أنا قادم فوراً.

كانت الطبيبة تنتظر ملازم الشرطة وفي يدها ورقة شبه ممزقة:

- ظننتك غادرت المكان!

- خرجت إلى الشرفة لاستنشاق بعض الهواء. هل من جديد؟

- كنت للتو في غرفة أسيل أطمئن على حالها، وكانت تشكو لي عن حرارة جسمها فنزعت عنها ملابسها لأخفف عنها قليلا. وفيما كنت

أقــوم بترتيــب ملابســها داخــل خزانــة الغرفــة أحسســت بشــيء مــا تحــت ملابســها. أنظــر إلى هــذه الورقــة التي وجــدتها داخــل جيــب سترتها !

أمسك الملازم الورقة وأخذ يقرأ ما كُتب عليها بتركيز كبير.

- إنها رسالة مكتوبة بخط اليد وهي من شخص يدّعي أنه يعرفها جيدا! يقول إنه على علم بكل ما حدث لها. إذن فالأمر مدبّر كما استنتجناه نحن؟

- يعرفها جيدا؟ كيف ذلك؟

- المكان هنا لا يساعد على التركيز دعينا نذهب إلى مكان هادئ أولاً.

دخل الشرطي رفقة الطبيبة إلى مكتبها الخاص ثم أخرج الرسالة ووضعها على المكتب لإعادة قراءتها من جديد، كان على الطبيبة أن تقرأ فقط السطر الأول منها لتشعر بالحزن الكبير على تلك الفتاة ولتعرف أن كل استنتاجاتها مع ملازم الشرطة كانت صحيحة.

كانت الرسالة عبارة عن وصفة طبية فارغة كتبت عليها بخط اليد وبقلم أزرق جاف ثم قام الشخص المرسل بتمزيقها من الجهة العلوية قليلا وطيّها على مرتين.

الرسالة:

كان من الهين عليّ تركك تموتين لكني لم أفعل ولا أعلم لما لم أفعل...

أسيل! ربما لا تعرفينني شكلا ولكني أعرفك جيدا من خلال صورك، أتابع أخبارك منذ أن كنتِ صغيرة إلى غاية وجودك بين أشجار حديقة صوفيا، لقد فرحت عند رؤيتك ليلة البارحة وتيقنت حينها أنك حقا كبرتي ولم تعودي صغيرة. قد لا تعرفين تفسيرا عن كيفية وجودك هنا في الجزائر ولا أريد إخبارك بذلك حتى تستطيعين إكمال بقية حياتك على ما يرام، لأن الحقيقة مؤلمة لك وقد تغير نمط عيشك، لقد خاطرت بحياتي لإنقاذك من مصير خطر جدا عليك رغم أني كنت مساهما فيه. ستستيقظين في الصباح وستجدين نفسك مرهقة قليلا، قمي بالتوجه إلى أقرب مركز للشرطة ليقدموا لك المساعدة.

لا أريد منك أن تثقي بكل من حولك بعد اليوم. مع السلامة.

- يا لقذارة هذا الشخص! يقوم باختطافها ثم يترك لها رسالة يعبر فيها عن فرحته لرؤيتها ويخاطر بحياته لإنقاذها، ما خطب هذا الشخص؟

حكّ الملازم عبد القادر جبينه ثم بقي ساكنا يحدث نفسه:

"لا تعرفينني ولكني أعرفك"

"خاطرت بحياتي لإنقاذك"

"لا أريد منك أن تثقي في كل من حولك بعد اليوم".

- هل فهمتي شيئا يا دكتورة؟

- لـم أفهـم شـيئا ولكنـه يبـدو وكأنـه يعرفهـا جيـدا أو كـان يتّبـع تحركاتها أو شيء من هذا القبيل!

بقـي عبـد القـادر ممسـكا بالورقـة معطيـا تركيـزا كبيـرا علـى تلـك العبارات التي لاحظ أنها تبدو متناقضة.

- تـرى مـن عسـاه يكـون هـذا الشـخص؟ أو بـالأحرى مـا نـوع القرابـة التي تربطه مع هذه الفتاة وهو يقول إنه يعرفها ولا تعرفه هي؟

أعاد عبد القادر قراءة الرسالة من أولها لكن دون جدوى.

تنهّد بعمق وقال:

- مـن غير المعقـول أن يجتمـع كل هـذا التنـاقض في مكـان واحـد بهـذه الطريقـة. كيـف يفـرح لرؤيـة شـخص قـام باختطافـه ورميـه ثـم يقـوم بعـدها بإنقـاذ حياتـه كمـا يـدّعي في رسـالته؟ بـل قبـل هـذا وذاك كيـف وصـلت هـذه الفتـاة مـن تـونس إلى الجزائـر وهي لا تعـرف أحـدا هنـا ولـيس لهـا أي قرابـة وصـلة بـأيّ كـان؟ يـا إلهي أي لغـز تحملـه هـذه القضية!

* * *

عمليات مشابهة

12

مقر الشرطة القضائية، الجزائر العاصمة

الساعة 11:57...

كان محافظ الشرطة السيد أحمد يستعد للخروج من مكتبه متجها نحو قاعة الاجتماعات. أفضى تحقيق أفراد الشرطة بالاعتماد على تقرير الملازم عبد القادر إلى خيوط متفرقة قد تقودهم إلى معرفة حيثيات القضية.

ألقى نظرة أخيرة على حاسوبه الشخصي أين يتم تسجيل عناوين الملفات التي يعالجها مركز الشرطة هذا اليوم عبر قاعدة المعلومات الخاصة بالمركز: سرقة ليلية لمتجر مجوهرات، احتراق سيارة أمام مبنى سفارة دولة كوبا، شكاوى عديدة وتوقيفات بالجملة لعصابات الأحياء وبائعي المخدرات...

فور بداية الاجتماع أمر المحافظ من أحد مفتشي الشرطة بمباشرة إعطاء النتائج الأولية للتحقيق.

كان اختيار السيد أحمد قد وقع على المفتش رضا ليتسلم مهام هذه القضية.

أتم رضا هذا الشهر سبع عشرة سنة من الخدمة في صفوف الشرطة، قضى منها ما يقارب عشر سنوات هنا في مركز الشرطة القضائية بولاية الجزائر، وهذا ما أهّله ليكون أحد أهم المفتشين

الـذين يعـول علـيهم المحـافظ كثيـرا خصوصـا في هـذا النـوع مـن القضايا المتشابكة والغامضة.

باشـر المفـتش رضـا في شـرح مجريـات التحقيـق، ثـم نهـض مـن مكانـه وقـام باسـتعراض عـدد مـن الصـور والوثـائق على شاشـة العـرض المتواجدة داخل القاعة:

العثور على أجزاء بشرية وأغراض طبية ملقاة على الطريق السريع الرابط بين ولاية الجزائر وولاية تيبازة (تقرير التلفزة الوطنية، 11 أغسطس 2011)

الخمـيس 11 أغسـطس 2011 وفي حـدود السـاعة الثامنـة صـباحا تلقـت مصـالح الشـرطة لولايـة الجزائـر اتصـالا يفيـد بـأن مـواطنين عثروا على حقيبـة كبيرة الحجـم تحتـوي بـداخلها على مجموعـة مـن أكيـاس الـدم المسـتعملة في نقـل الـدم البشـري إلى المرضـى وقـدّر عـددها بنحـو 56 كيسـا كانـت قـد اسـتعملت في تخـزين الـدم، بالإضـافة إلـى أدوات طبيـة وقفـازات وأغـراض أخـرى تسـتخدم في العمليـات الجراحيـة. كـان هـذا على حافـة الطريـق السـريع الـرابط بـين ولايـة الجزائـر وولايـة تيبـازة بالضـبط على مسـتوى المقاطعـة الإداريـة لمدينـة زرالـدة. أيـن تنقـل أفـراد مـن الأمـن ومـن الشـرطة العلميـة إلـى المكـان لمعاينـة الأمـر ليتفـاجؤوا أيضـا بوجـود أجـزاء بشـرية كانـت داخـل صـندوق ملقى على بعـد أمتـار مـن الحقيبـة، مـا دفـع بمصـالح الأمـن لفـتح تحقيـق معمـق بالتنسـيق مـع كافـة مديريات الصحة ومدراء المؤسسات الصحية العمومية والخاصة.

**

أربعة أيام بعد اختفاء طفل حديث الولادة من مستشفى

عمومي بمدينة البليدة

(مقال جريدة الخبر الجزائرية، 26 مارس 2012)

قال مصدر أمني لجريدة الخبر بأن عددا من أفراد الدرك الوطني قد عثروا مساء البارحة على جثة طفل حديث الولادة مقتولا في بيت مهجور بضواحي مدينة البليدة، وأكد أقارب الضحية نقلا عن الإذاعة الجزائرية أن الأمر يتعلق بالطفل ب. محمد الأمين البالغ من العمر 05 أيام فقط.

وأفاد ذات المصدر بأن الرضيع تمت سرقته من داخل المستشفى الجامعي فرانس فانون بالبليدة مساء الخميس الماضي عندما تركته والدته في غرفة بالمستشفى بعد أن وقع استدعاؤها لقياس ضغط دمها، لتتفاجأ لدى عودتها باختفاء ابنها من مكانه.

وفي هذا السياق أوضح قائد المجموعة الإقليمية للدرك الوطني بالبليدة النقيب ع.ف أن الرضيع تعرض إلى عملية سرقة لبعض من أعضائه مع تقطيع الجثة ووضعها في كيس بلاستيكي ثم رميها داخل بالوعة للصرف الصحي المتواجدة في أحد غرف البيت المهجور، والذي يبعد عن مدينة البليدة بنحو 45 كلم شرقا.

مصالح الأمن تنقلوا بدورهم إلى قسم الولادة بالمستشفى لفتح تحقيق معمق ومعرفة حيثيات هذه الجريمة المروعة في حق هذا الرضيع والتي هزت سكان ولاية البليدة.

**

جريمة قتل بشعة لطالب جامعي وسرقة أعضاءه الداخلية بالإقامة الجامعية للذكور بن عكنون

(بيان صحفي للمديرية العامة للأمن الوطني، 19 مايو 2013)

بتاريخ 19 مايو 2013 وفي حدود الساعة 22 و35 دقيقة اهتزت الإقامة الجامعية طالب عبد الرحمان 03 - بن عكنون بالجزائر العاصمة على وقع جريمة قتل مروعة راح ضحيتها طالب جامعي تم العثور عليه من قبل زملاءه الطلبة في ظروف غير محددة داخل غرفته.

حسب المعلومات المستسقاة من أعوان الأمن أن الضحية المدعو ي.خ البالغ من العمر 23 سنة وهو طالب بكلية العلوم الإسلامية ينحدر من بلدية مشيرة ولاية ميلة، كان يقيم لوحده في الغرفة وهو معروف في وسطه الدراسي بالالتزام والسيرة الحسنة.

مصالح الشرطة تنقلت إلى مكان الجريمة لمعاينة الجثة وتفحص الغرفة أين تم اكتشاف أن الضحية تعرض إلى عملية قتل وسرقة كلتا كليتيه في منظر مروّع داخل الغرفة التي امتلأت جدرانها بالدماء وتلطخت أفرشة وأغراض الطالب عن آخرها.

التحقيق لا يزال مفتوح الآن من طرف النيابة العامة المختصة في انتظار معرفة تفاصيل أخرى عن الحادثة.

**

بعد انتهاء عرض هذه الملفات التي قام مركز الشرطة القضائية بمعالجتها سابقا تكلم المفتش رضا مخاطبا الجميع:

- اسمحوا لي أن أضع تحت نظركم هذه الجرائم الثلاث وهي جرائم سابقة ولها نفس الطابع كما رأيتم، كانت في محيط العاصمة باختلاف التاريخ والمكان. ألا تلاحظون أمرا غريبا حولها؟

قست عينا المحافظ قليلا ثم قال:

- أتظن أنّ المتهمين في هذه الجرائم الثلاث لهم علاقة مباشرة بقضية اليوم؟

- الجرائم المرتكبة كلها تتشابه في دافع القتل وهو سرقة الأعضاء البشرية من الضحايا ثم رميها، وهذا تماما ما رأيناه في قضية اليوم خاصة فيما يتعلق بالجريمة الأولى، وما يزيد في حدة الشك بوجود علاقة مباشرة بينهما هي تلك الأدوات الطبية الملقاة بجانب الجثة بالإضافة إلى المجموعة الكبيرة من الأكياس الدموية المستعملة.

- أتعتقد هذا؟

- أكاد أجزم بذلك حضرة المحافظ. التحقيقات لا تزال جارية وسنبذل قصارى جهدنا لفك خيوط هذه القضية.

لم يكمل المفتش حديثه بعد حتى سمع طرقا على الباب فتوقف عن الكلام. أشار المحافظ لأحدهم بفتح الباب لرؤية من قام بقطع هذا الاجتماع المهم.

كان أحد أعوان الشرطة خلف الباب وقد جلب معه هاتفه الشخصي:

- الملازم عبد القادر طلب الحديث معك يا سيدي، تفضل.

أمسك المفتش الهاتف ثم شغّله على الوضع الذي يمكّن الجميع من الاستماع إلى كلام المتصل:

- نعم حضرة الملازم أنا في الاستماع.

تكلم عبد القادر بصوت لا يكاد يُسمع بسبب الصدى الذي يسببه الحديث في مكان فسيح ومغلق:

- هناك طارئ أيها المفتش، لقد عثرنا بين ملابس الضحية عن رسالة مكتوبة بخط اليد وهي من شخص يدّعي أنه يعرفها جيدا، وحسب ما فهمته من مضمون الرسالة أنه أحد المختطفين.

- جميل جدا، سيساعدنا هذا في محاولة الإمساك بالخيط الذي يقودنا للوصول إلى حل لهذا اللغز المحير.

- سأقوم بإرسال نسخة منها إليكم عبر البريد الإليكتروني لمكتب الاستقبال ستساعدكم في مواصلة التحقيق.

- نعم نحن في انتظار رسالتك، شكرا.

أغلق المفتش الخط ثم خاطب عون الشرطة:

- تفقد البريد وأحضر لنا ما سيرِد عن الملازم بسرعة.

- حاضر يا سيدي.

لم يكن المفتش والحاضرون على دراية بقضية زمرة الدم، فالعلاقات المتوترة بين المفتش والملازم عبد القادر جعلت منه يخفي هذا الأمر عندما علم أن المفتش رضا سيكون المشرف على التحقيق في قضية الطفلة أسيل. لقد أراد أن يكون هو صاحب البطولة والدور الأكبر في الكشف عن ملابساتها، لكن صعوبة القضية جعلته يتخلى عن هذه الفكرة بعد ذلك.

بعد خمس دقائق عاد عون الشرطة وهو يحمل في يده الرسالة التي وصلت للتو.

- تفضل يا سيدي هذه رسالة الملازم.

أمسك المفتش الورقة وقام بوضعها على المكتب ليتسنى له قراءتها هو ومحافظ الشرطة في آن واحد.

- لحظة واحدة يا سيدي! أنظر لهذا.

ثم أشار المفتش بإصبعه إلى حافة الورقة.

- ماذا تقصد؟

- أنظر يا حضرة المحافظ، لقد قام المختطف بتمزيق الورقة لإخفاء المعلومات التي تحملها هذه الوصفة الطبية، فمن الواضح جدا أن هذا الشخص يعمل في قطاع الصحة، مستشفى أو مركزا طبيا، لا شك أنه كتب هذه الرسالة في الصنف الوحيد من الأوراق التي بحوزته وهي هذه الوصفة الطبية الخاصة بالمكان الذي يشتغل فيه، ثم قام بتمزيق الجزء العلوي للورقة لإخفاء معلومات عن مكان عمله وليتخلص من أي دليل قد يوصل الفتاة إلى مكانه أو كشف هويته لها بما أنه يعرفها جيدا.

- نعم إنّي أرى ذلك. لقد أخفى الدليل الوحيد للوصول إليه.

- لكن يا سيدي تمعن جيدا هنا، لقد شاءت الصدف أن ينسى المختطف إخفاء كل شيء. أنظر جيدا إلى حافة الورقة، هذه الحروف باللغة بالعربية والفرنسية.

- معك حق، حرف "س" وحرفا "Cl" بالفرنسية.

س

Cl

Patient(e): .... Age: ...

Ordonnance

كان من الهين علي تركك تموتين لكني لم أفعل ولا أعلم
لما لم أفعل
أسيل ! ربما لا تعرفينني شكلا ولكني أعرفك جيدا من خلال صوتك، أتابع
أخبارك منذ أن كنتي صغيرة إلى غاية وجودك بين أشلاء حديقة صوفيا
لقد فرحت عند رؤيتك ليلة البارحة وتيقنت حينها أنك حقا ابنتي
ولم تعودي صغيرة، قد لا تعرفين تفسيرا عن كيفية وجودك هنا في
الجزائر ولا أريد إخبارك بذلك حتى تستطيعين إكمال بقية حياتك
على ما يرام، لأن الحقيقة مؤلمة لك وقد تغير نمط عيشك، لقد
خاطرت بحياتي لإنقاذك من مصير خطير جدا عليك وعن أبي
أنت مساهمة فيه، ستستيقظين في الصباح وستجدين نفسك
مرهقة قليلا، قومي بالتوجه إلى أقرب مركز للشرطة ليقدموا لك
المساعدة.
لا أريد منك أن تفتشي في كل من حولك بعد اليوم!
مع السلامة.

- نعم يا سيدي، من الممكن جدا أن تقودنا هذه الحروف المتبقية إلى معرفة المعلومات التي تحملها هذه الوصفة وهذا بدوره ما يمكننا من الوصول إلى هوية صاحب الرسالة، والذي من دون شك سيكون هو مفتاح القضية كلها.

- المعلومات التي تكون في الجزء العلوي من الوصفة الطبية تحتوي في الغالب على الاسم الكامل للمستشفى أو للعيادة وعلى عنوان ورقم هاتف المقر. ماذا يعني حرف "س" وحرفا "Cl"حسب رأيك؟

نظر المفتش إلى المحافظ قليلا ثم حمل الورقة بيده مخاطبا:

- لحظة واحد لو سمحت.

أمعن النظر لبرهة في الحرفين "Cl" ثم أكمل كلامه:

- حرفا "Cl" وهما في بداية السطر واضح جدا أنهما الحرفان الأولان لكلمة Clinique وهذا يعني أن هذه الوصفة الطبية هي لعيادة أو مصحة خاصة وليست لمشفى عمومي.

- وكيف عرفت أنها لعيادة خاصة وليست لمشفى عمومي؟

- في غالب الأمر يطلق اسم Clinique في الجزائر على العيادات والمصحّات الخاصة بينما المستشفيات والعيادات العمومية تحمل أسماء أخرى.

- اشرح لنا كلامك أكثر.

وضع المفتش ورقة فارغة فوق المكتب وأمسك القلم ثم قال:

- سأعطيكم لمحة عنها يا سيدي. تُقسم المنظومة الصحية في بلدنا مؤسساتها ومراكزها الصحية إلى عدة أصناف، فمثلا الاسم الكامل للمركز الاستشفائي الجامعي يكتب باللغة الفرنسية اختصارا هكذا: C.H.U، ويكتب اسم المؤسسة العمومية الاستشفائية بالحروف التالية: E.P.H، بينما يُختصر الاسم الخاص بالمؤسسة العمومية للصحة الجوارية كالتالي: E.P.S.H .
يتبقى لنا مؤسستان وهما: E.H.S وتعني المؤسسة الاستشفائية المتخصصة وأخيرا العيادة المتعددة الخدمات وهي معروفة باسم POLYCLINIQUE.

هذه هي تصنيفات جميع المؤسسات والمراكز الصحية في القطاع العام حضرة المحافظ، وكلمة Clinique هي بالتأكيد تدل على مصحة أو عيادة طبية تنتمي إلى القطاع الخاص.

- نعم حسنا اتفقنا على الحرف الأول، وماذا عن حرف "س"؟

صمت المفتش ثم أخذ يفكر بعمق، غير أن محافظ الشرطة كان قد نهض من مكانه واتجه إلى مكتبه الخاص.

عاد بعد دقيقتين وجلب معه حاسوبه المحمول ووضعه فوق طاولة الاجتماعات.

لم يلبث كثيرا في البحث داخل حاسوبه ثم تنهّد قائلا:

- حسنا، لديّ هنا ملف يحمل عناوين جميع العيادات والمصحات الطبية الخاصة في ولاية الجزائر. إذا كانت هذه العيادة الخاصة ضمن إقليم الولاية فمن دون شك سنجدها هنا.

- دعني أتولى البحث يا سيدي.

تكلم المفتش ثم جلس بجوار المحافظ وعدّل الحاسوب بالشكل الذي يناسبه. وضع الرسالة على يساره ثم باشر بالاطلاع على قائمة المؤسسات الصحية الموجودة وعلى المعلومات التي يخزنها الحاسوب عنها. كان يتوقف في كل مرة للنظر إلى الرسالة بتمعن ثم يعود لمواصلة البحث.

مرّت خمس دقائق..

همس لنفسه بصوت منخفض:

- مصحة الـ..

ثم ذهبه بخياله بعيدا باحثا عن شيء كان قد مرّ عليه ذهنه من قبل. سكت قليلا وضحك بصوت مرتفع:

- مصحة الزهور وسط نهج محمد الخامس هنا في العاصمة! يا لغبائي لقد كانت آخر زيارة لي إليها الأسبوع الماضي فقط كيف لم تخطر على بالي.

رد عليه المحافظ:

- نعم أعرفها، إنها مصحة معروفة.

- نعم معروفة ولها سمعة طيبة، كنت في زيارة إلى هناك برفقة زوجتي لإجراء فحوصات وتحاليل لها قبل أسبوعين فقط، والوثائق التي قدّموها إليّ لا تزال في درج مكتبي سأحضرها حالاً.

- صدفة جميلة. هيا أسرع بإحضارها.

- نعم يا سيدي.

ثم خرج المفتش مسرعا باتجاه مكتبه في الطابق السفلي للمركز وعاد بعد دقيقتين يحمل بين يديه ملفا من الحجم الكبير.

كان الملف يحتوي على نتائج لتحاليل طبية وعلى ورقة التصوير بالأشعة وأخيرا على وصفة طبية دُوّنت عليها قائمة من أربع أدوية.

أخذ المحافظ الوصفة من بين يدي المفتش بتلهف ثم وضعها على الطاولة ووضع بجانبها الرسالة التي قام بإرسالها الملازم عبد القادر. نظر إليهما قليلا ثم استدار قائلا:

- بالضبط. إنها الورقة نفسها، المفتش رضا على حق.

ساد الصمت برهة في المكان ثم استأنف المحافظ كلامه مخاطبا الجميع:

- هيا بسرعة جهزوا أنفسكم حالا..

***

القبو

13

شارع محمد الخامس، الجزائر العاصمة

المصحة الطبية الخاصة - الزهور

الساعة 16:15..

في بداية هذا المساء وفي حرم مكتبه نزع عادل مئزره وعلّقه خلف الباب ثم ارتدى سترته الجلدية ذات اللون البني. قام بحمل حقيبة ظهر رياضية من ماركة "نيو بالانس" وهمّ بالخروج.

أغلق الباب وسار بخطوات بطيئة متجها إلى الخارج. لقد كان يوما متعبا بالنسبة إليه.

ثم فجأة رنّ هاتفه داخل جيبه.

- نعم يا سيدي! نعم، حسنا أنا قادم.

اتجه خفية نحو السلالم المؤدية إلى المكان الذي لا يعرفه أحد من الذين يرتادون هذه المصحّة الطبية، والتي يزاول بها مهنته كطبيب منذ سنوات طويلة.

كان الدور السفلي للمصحّة عبارة عن قبو، فكما هو معروف عن العمارات الفرنسية القديمة أنها تحتوي أغلبيتها على قبو في الأسفل. لقد قام صاحب هذه المصحّة بتحويله إلى مكان مخصص لكل ما هو غير مشروع في مجال الطب، كإجهاض الحوامل مقابل مبالغ مادية معتبرة واستئصال وسرقة الأعضاء من المرضى الذين يفارقون الحياة في الدور الأعلى دون علم أهلهم، والذي لا يعطي

على وجود أية علاقة مع القبو السفلي. والعديد من النشاطات التي تمنعها السلطات الجزائرية باعتبارها عمليات إجرامية يعاقب عليها القانون بشدة.

راح عادل وهو طبيب جرّاح في الـ 47 من العمر يمشي بقدمين مرتجفتين من الخوف في رواق طويل يعتم عليه السكون وتنعدم فيه الأصوات، تملؤه رائحة الرطوبة الكريهة الناتجة عن انعدام تسرب الهواء إليه.

عند وصوله شعر وهو يضع يده على قفل الباب بضربات قلبه تتسارع كما لو أنه سيفتح باب الجحيم على نفسه. قام بكحّة صغيرة عسى أن يتخلص من خوفه الذي من دون شك سيبدو واضحا من خلال نبرة صوته، ثم فتح الباب بهدوء ودخل.

لقد أصابه اتصال سيده بالرعب.

كان الباب يؤدي إلى غرفة كبيرة أشبه بسرداب تحت الأرض. أرضية غير مبلطة وجدران بلون اسمنتي يعلوها سقف لا يزيد عن المترين، ينيرها مصباح شاحب معلق في إحدى زواياها بخيط بلاستيكي، وهو ما جعل الغرفة تُعرب عن عدم الارتياح عند الدخول إليها.

كانت الغرفة واسعة جدا حيث سمحت باحتواء كل تلك الأغراض التي يحتاجها هذان الشريكان في ممارسة نشاطاتهم. في الزاوية التي عُلق أعلاها المصباح الوحيد في المكان يتواجد مكتب خشبي عليه حاسوب محمول وآلة للطباعة وهاتف سلكي والكثير من

الملفات والأوراق ملقاة بطريقة غير مرتبة، وخزانة كبيرة تحمل أدوية وقنينات زجاجية وأغراض طبية أخرى، أما في آخر الغرفة وُضع سرير مخصص للعمليات الجراحية أمامه طاولة بها أدوات طبية مختلفة من إبر ومشارط ومسابر وملاقط وضمادات جراحية وغيرها. بالإضافة إلى مجموعة من الصناديق والحقائب والعلب الكبيرة كانت متكئة على ثلاجة من الحجم الصغير.

كان يجلس على المكتب كهل في الستين من العمر يدعى كمال، وهو صاحب هذه المصحّة الطبية منتظرا مجيء الطبيب عادل منذ ربع ساعة تقريبا. كان الرجل قصيرا وممتلئ الجسم، يرتدي سترة كستنائية اللون وبنطالاً أسودا من الجينز.

كان وجهه متجهّما وعبوسا.

- نعم يا سيدي!

- أهلا بأفضل طبيب في العالم.

أحس عادل من كلامه بأنه قد علم بأمر الفتاة التي أخرجها من إحدى غرف الطابق العلوي في الليلة الماضية وقام باقتيادها خفية إلى الخارج.

- شكرا يا سيدي هذا لطف منك. هل تريد شيئا؟

- لا، لا شيء مهم. فقط أردت إخبارك بأني كنت في اتصال مع السيد "أندريه" وهو مستعد لتقديم مبلغ 20 مليون يورو مقابل كيس واحد من دم تلك الفتاة التونسية، وهو مبلغ ليس بالقليل

خاصة بعد كل تلك المبالغ التي أنفقناها في سبيل إحضارها إلى هنا.

لم يندهش عادل أبدا من سماع حجم ذلك المبلغ.

- نعم جميل جدا. مبارك يا سيدي.

- ما لي أراك غير سعيد بهذه الصفقة؟ لك أيضا نصيب وافر من هذا المبلغ، أم نسيت أنك صاحب الفضل الأكبر؟ أعدك أني سأكافئك بشيء عظيم فأنت تستحق ذلك.

- لا يا سيدي أنا سعيد بهذه الصفقة بالتأكيد. فقط أشعر ببعض التعب وأريد العودة إلى منزلي لأرتاح قليلا.

- حسنا لا بأس.

أبدى كمال ابتسامة شاحبة وأخذ يرمقه بنظرات متوالية أشعرت عادل بالانزعاج والتوتر.

لقد كان شبه متأكد أن هذا الاستدعاء المفاجئ لا يبشر بالخير وأنه من دون شك قد علم بأمره، فهو يعلم أنه شخص فطن جدا وعلى دراية بكل خفايا هذه المصحّة، سنوات عمله في إدارة هذه المؤسسة الصحية أكسبته مزيدا من اليقظة والحرص على كل صغيرة وكبيرة تدبّ بين أروقتها.

شعر عادل بأن هذه الليلة لن تمر بسلام، تدافعت الأفكار داخل رأسه وهو يحاول التركيز بأن يظهر أمام كمال بمظهر البريء واللامبالي، ثم أخذ يفكر بسرعة في طريقة للخروج من هذا المكان دون أن يقوم بأي حركة أو يتلفظ بكلمة قد تعطي مؤشرا بأنه

الفاعل، وبعدها سيكون له الوقت الكافي للتفكير فيما يجب عليه القيام به.

وضع يده في جيب معطفه دون أن يشعر ليتحسس أن شيئا ما بداخله. تذكر حينها علبة القلم الجاف التي أهداها إياه أحد زملائه في العمل. قام بسحبها فورا وتقديمها لكمال على شكل هدية:

- اه تذكرت شيئا. تفضل يا سيدي، هذا القلم الجميل من ماركة "باركر" يليق فقط بمقام رجال الأعمال والشخصيات العظيمة، كنت قد اشتريته الشهر الفارط في رحلتي إلى فرنسا ونسيت تقديمه إليك.

ازدادت حدّة نظرات كمال في وجه عادل وتغيرت تلك الابتسامة الماكرة بوجه تملؤه القسوة والجبروت:

- أنت متورط بأفعال ليست على مقاسك. عادل الطبيب المتفاني قد خان العهد وقلب أوراق اللعبة التي عهدنا على لعبها معا منذ سنوات، خان الاتفاق وورّط نفسه قبل أن يورطنا جميعا معه.

لم ينبس عادل ببنت شفة وبقي فقط ينظر إليه بعينين واسعتين.

- تكلم يا سيد عادل، أين أخذتها؟

- ما الذي تقصده؟ ومن التي أخذتها؟

- لا تجادلني ولا تلعب دور المتغابي أمامي. أين أخفيت تلك الفتاة؟

- لا علم لي بذلك.

- لا علم لك بذلك؟ هيا أجبني حالا.

- قلت لك أن لا علم لي بذلك.

- إذاً لا تريد الاعتراف بفعلتك؟ حسنا.

استدار صاحب المصحة إلى حاسوبه الشخصي الذي كان مشتغلا. بعد لحظات قليلة أظهر مجموعة من الصور التي قامت كاميرات المراقبة بالتقاطها في الليلة الماضية. وهي تسع كاميرات غير مرئية قام كمال بتركيبها خفية داخل المصحة وخارجها.

لم ينتظر عادل من كمال أن يكمل عرض بقية الصور لينفجر في وجهه قائلا:

- نعم أنا من قمت بأخذها، أنا من أبعدها عن هذا المصير الذي ينتظرها. ما ذنب تلك المسكينة حتى تنتهي حياتها بتلك الطريقة؟

أزاح كمال يده عن فأرة الحاسوب ثم أدار الكرسي المتحرك باتجاه الخلف لينظر إلى عادل وهو مصدوم من طريقة كلامه:

- ومتى صرت رحيما وتفكر في مصير المرضى؟ أم أنك نسيت كل ما قمت به في السابق؟ أنت تقود نفسك إلى الهلاك أيها السافل بكلامك هذا وإنك تدرك جيدا ما يمكنني فعله!

- لا يهمني شيء، لقد عملنا معًا خلال كل تلك السنوات الماضية. لم تتحرك مشاعري اتجاه أحد وتعلم أنّي تحت إمرتك في كل وقت وعلى كل المستويات، تعلم أني أفضل المال على كل شيء في هذه الدنيا لكن الأمر يختلف هذه المرة.

- ولماذا هو مختلف اليوم؟ ما الذي تغير؟

- مختلف لأن الضحية هذه المرة ليست فتاة عادية. إنها ابنتي التي تريد مني أن أمتص دماءها بيديّ هتين لأجل ملذات الدنيا التي لا تنتهي، لا أريد المال ولا أريد ابنتي أيضا لكنّي أريدها أن تحيا بسلام لا أن يقتلها والدها ويرمها جثة هامدة على حافة الطريق.

- ولكننا تحدثنا عن الأمر معا وكنت موافقا على ذلك. لماذا غيرت رأيك الآن بعد كل تلك الأموال التي قمت بدفعها؟

- غيرت رأيي لأنك لست أهلا لهذا الاتفاق.

- ماذا قلت؟ هل تريد أن أقتلع لسانك الطويل ذاك؟ كيف أني لست أهلا لهذا الاتفاق؟

- نعم لستَ أهلا له. لقد سمعت جيدا الحوار الذي دار بينك وبين أحدهم عبر الهاتف، كنا متفقين في البداية على كيس دموي واحد ومن الحجم الصغير، وكنا متفقين أيضا على أن أشرف بنفسي على هذه العملية، لكن أن يُسحب منها كل الدم فهذا لن أجرؤ على فعله ولن أسمح لأحد بلمسها ولو وضع السيف على عنقي.

كان كمال لا يزال جالسا وهو يشعر بغضب واستفزاز لم يشعر بهما من قبل.

واصل توجيه الشتائم والتهديدات لعادل كلما تذكر حجم المبلغ الذي خسره في جلب أسيل إلى هذه المصحة. لقد قام بالتنسيق مع أحد رجال الأعمال في تونس بالتواطؤ مع مجموعة من رجال الأمن وتم اختطاف وتهريب الفتاة إلى العاصمة خفية عبر الحدود البرية.

على مدار كل تلك السنوات التي نجح فيها بإقناع عادل بالعمل معه خارج الإطار القانوني وبعيدا عن أعين الناس، عاش هذا الطبيب منذ ذلك الوقت ندما يعتصر قلبه في كل مرة، لم يكن هذا الندم ناتجا عن انضمامه للاتجاه الإجرامي مع سيده، وإنما إلى دنو كرامته وفقدان هيبته كطبيب جرّاح وإحساسه الدائم بالانهيار والألم النفسي كلما حدث بينهما سوء تفاهم يؤدي بكمال إلى توجيه كلام سيء وبغيض إليه.

كان هذا الإحساس أكثر شيء يدفع عادل إلى التفكير دائما في محاولة التخلص من هذه الدوامة التي غرق فيها.

شتائم وتهديدات اليوم ليست كسابقيها..

امتلأ قلب عادل عن آخره، لم يعد يقوى على تحمل وقع تلك الكلمات أكثر.

أغمض عينيه وبقي وكأنه يغلي كحمم البركان.

لقد نفد صبره..

نهض كمال من مكتبه ووضع يديه على أسفل ذقن عادل يريد خنق رقبته.

ما إن ضغط عليه وملقيا شتائمه وتهديداته بالقتل والتعذيب شعّت في عيني عادل شرارة مجنونة من الغضب والقهر. ثم في لحظة لم يدرك خلالها ما فعل أبعده عنه قليلا وفاجأه بلكمة قوية على وجهه كادت أن تفقده وعيه. انهار من شدة تلك اللكمة

بجسده كاملا على المكتب ما جعل جهاز الحاسوب يترنح يمينا ويسارا ثم سقط أرضا فتبعثرت معه الأوراق والملفات كلها.

وضع رجله على رأس كمال مهددا:

- لقد حان الوقت الآن لأقتلك وأنهي كل مشاعر القهر والإذلال التي سببتها لي طيلة كل تلك السنوات.

أمسك علبة المشارط الطبية الحادة وأخرج منها أطول واحد فيها.

- سأقطع لسانك أولا.

كان عادل في حالة هستيرية لم يكن يدري ما يقوم به، لقد أراد الانتقام لنفسه.

قبل هذا مر عليه شريط من الذكريات داخل أسوار هذه المصحة. تذكر كل أولئك الأموات الذين شق أجسادهم وقطع أعضاءهم، تذكر كيف تحول من طبيب يقوم بعلاج آلام الناس وتضميد جراح ذويهم إلى مجرم يتاجر بها، تذكر أيضا كيف أجازت له الأبوة بالسماح لهذا المجرم بمحاولة امتصاص الدماء التي تجري في عروق ابنته الوحيدة.

تذكر كل ذلك فزاده غضبا ورغبة في الانتقام. أمسك الأداة الحادة بأصابعه جيدا وأشهرها في وجه كمال يستعد لضربه بها.

فجأة سمع عادل وكمال صوت عنيف لدبيب أقدام يأتي من بعيد باتجاه باب الغرفة. توقف عادل قليلا بينما كان الصوت يقترب أكثر، ثم لوهلة اقتحمت فرقة من رجال الأمن الغرفة وأشهر كل شرطي سلاحه إليهم.

- Stop Stop!

- ألق ما في يدك.

- يديك إلى ظهرك، استدر هيا.

داهمت الشرطة الغرفة السفلية وألقت القبض على عادل وسيده تحت وابل من الصرخات والمناوشات التي ملأت المكان.

**

مضت حوالي نصف ساعة من التحقيق وتفتيش المكان، بعدها تم اقتياد كمال وعادل إلى قسم الشرطة فيما بقيت عناصر من رجال الأمن داخل المصحة لضمان حسن سيرها وطمأنة المرضى المتواجدين هناك.

بعد استجوابهما لم يكن صعبا على عادل الاعتراف بكل بأحداث عملية الاختطاف هذه، بل سارع إلى تقديم كل التفاصيل خاصة فيما تعلق بابنته الصغيرة، وهو الأمر الذي هزّ نفوس كل رجال الشرطة.

كانت اعترافات عادل مزلزلة، لكنها وضّحت أيضا الكثير من الأمور، بالرغم من السمعة الحسنة التي تتمتع بها هذه المصحة الطبية، إلا أنه اعترف بأن حوالي ثلاثين مريضا من الذين فارقوا الحياة هناك قد تمت سرقة أعضائهم الداخلية وبيعها دون علم أهاليهم. القضايا الثلاث التي تحدّث عنها المفتش رضا صباحا كان صاحب هذه المصحة وأتباعه هم من وراء ذلك، إضافة إلى الكثير من عمليات الولادة الغير شرعية وعمليات الإجهاض كانت تحدث هناك مقابل مبالغ مادية كبيرة وخفية عن أعين السلطات الأمنية.

حدّثه المحافظ قائلا:

- ألا يفترض بك أن تكون أنت هو الحامي الأول لهذه الفتاة عوضا عن كونك مشاركا في اختطافها ومحاولة قتلها؟

- نعم كان يُفترض هذا ولكن..

- لكن ماذا؟

لقد كانت مشاعره غير مفهومة أبدا، اختلطت مشاعره بسبب التغير الذي حصل له فجأة بين شخص مشرف على الكثير من العمليات البشعة إلى إنسان استفاق من غفلته للتو.

- لا أدري ما أقول.

كان الجميع ينظر إليه فيما تم نقل شريكه كمال إلى غرفة أخرى.

لقد أنكر كمال جميع التهم التي نسبت إليه وجزم بأن كل اعترافات عادل غير صحيحة وبأنه أراد قتله وسرقة أمواله فقط.

بقي المحافظ يطرح أسئلته وعادل يجيب عنها دون حتى أن يفكر في محاولة الإنكار. لقد كانت كل اعترافاته صحيحة.

فهم المحافظ من نبرة اعترافاته هذه أنه لم يكن يكذب، وأنه مستعد للكشف عن كل ما يعلم به على عكس شريكه كمال. ولكنه كان يشعر في كل مرة ينظر فيها إلى عينيه أن هنالك جانبا من الغموض في هذه القضية.

- هل أنت نادم؟

سأله المحافظ بشيء من الشفقة عليه. فقد كان يضع رأسه بين يديه منذ وصوله إلى قسم الشرطة.

صمت عادل ولم يجب، ولكن المحافظ كان قد أعاد تكرار سؤاله.

- بشدة. بالرغم من كل تلك الأموال الباهظة التي كنا نجنيها، لكنها كانت تذهب سدا، لم أنتفع بها ولم تغير حياتي للأحسن أبدا، بل العكس أشعر في كل مرة أقبض فيها تلك الأموال الملطخة أنني أزداد فقرا يوما بعد آخر.

- هذا أمر أكيد، فالمال القذر يستحيل أن ينموا ولن يزيد صاحبه شيء وإن كانت جبالا من ذهب، ويا ليت كل المجرمين يدركون هذا.

تنهد المحافظ ثم أكمل كلامه:

- حسنا يا سيد عادل، فكما يقال أن الاعتراف سيد الأدلة، إذن لا داع لإطالة الحديث أكثر. هل تعلم بأن عقوبتك ستتخطى عشرون سنة سجنا في أحسن الأحوال؟ وقد تكون العقوبة السجن المؤبد إذا قامت النيابة العامة بتطبيق القانون على حذافيره كما تنص المادة 272 من قانون العقوبات التي تقر بتعدي الأولياء الشرعيين على أبنائهم؟

باغتته كلمات المحافظ هذه لتنزل عليه كالصاعقة. رفع رأسه فبدا وكأن وجهه قد شحب فجأة، على الرغم من لون بشرته الفاتح إلا أنه ظهر أكثر اصفرارا من المعتاد، بقي صامتا وكأن تلك الكلمات قد شلّت لسانه. أعاد وضع رأسه بين يديه ثم ابتلع ريقه بصعوبة وخاطب المحافظ قائلا:

- هل يمكنني رؤية أسيل يا سيدي؟

توسعت عيون الجميع بذهول.

- أردتم قتلها والآن تريد رؤيتها؟

خاطبه المفتش رضا بغضب ثم أكمل كلامه:

- لا تقل لي أن إحساس الأبوة قد صحا داخل ضلوعك الآن؟ أترك الفتاة وشأنها أيها المجرم.

- دعه أيها المفتش. تكلم المحافظ بهدوء وأضاف قائلا:

- لا بأس سيد عادل طلبك مقبول، ولكن بشرط إذا رضيت هي أن تراك، فالأمر بيدها الآن.

* * *

مصطفى باشا

السبب في أن الحقيقة أغرب من الخيال هو
أن الخيال يجب أن يربطه خيط منطقي
ليجعلنا نصدقه، أما الحقيقة فقد تكون لا منطقية تماما

- سيدني هاريس -

14

المستشفى الجامعي مصطفى باشا، الجزائر العاصمة
الغرفة 16، مصلحة الاستعجالات
الساعة 17:10

كانت غرفة المستشفى تغرق تحت ضوء خافت ينبعث خلف الستائر البيضاء. وفي انتظار عودة الطبيبة نهضت أسيل من مكانها وارتدت ملابسها ثم جلست بجوار النافذة تشاهد المنظر في الخارج.

كما تجري العادة دائما، تُعد هذه النقطة وسط العاصمة من أكثر الأماكن ازدحاما بالسيارات والراجلين. شرطيان يقفان بمحاذاة نقطة الدوران يحاولان التخفيف من زحمة المكان، لكن في هذا الوقت بالذات وهو موعد انتهاء دوام العمل قد يصعب عليهما ذلك، فالكثير من الناس في طريقهم الآن للعودة إلى منازلهم بعد يوم كامل من العمل ومن مشاغل الحياة.

تتأمل أسيل المشهد في الخارج. في وسط البحر ترى باخرة كبيرة تشق الأمواج ببطء في طريقها لأن ترسو بالميناء المقابل، ترى أيضا جمعا كبيرا من الناس يتسارعون للدخول إلى محطة ميترو الأنفاق، وهو الوسيلة المحببة كثيرا لدى قاطني وزوّار مدينة الجزائر لما يقدمه من خدمات وسرعة كبيرة في الوصول إلى وجهات مختلفة من العاصمة.

في خضم هذه الأجواء فتحت الطبيبة باب الغرفة مبتسمة، اتجهت مباشرة نحو مفتاح الكهرباء لإنارة المكان وبادرتها بالكلام:

- لقد قمتي من مكانك وكأنك في صحة جيدة الآن!

التفتت إليها أسيل:

- أنا بخير يا دكتورة الحمد لله. يبدو أن تلك الحقنة قد قامت بعلمها بشكل جيد.

- هذا أكيد، إنك تبدين نشطة أكثر مما كنتي عليه صباحا.

- أشكرك جدا يا دكتورة.

- حسنا يا أسيل الآن أريد إخبارك بأمر ما ولتركزي معي جيدا.

- نعم سأركز معك تفضلي.

- في الحقيقة هما اثنان. خبر جيد والآخر...

- ماذا هناك أخبريني. قاطعتها أسيل هرعةً دون أن تسمح لها بأن تكمل كلامها.

- لا تقلقي يا صغيرتي سأخبرك بالخبر الجيد أولا. اصغي إليّ، لقد تم القبض على الذين قاموا باختطافك.

لمعت عينا أسيل لسماعها هذا الخبر:

- ماذا؟ متى هذا؟

- حدث هذا قبل قليل فقط، لقد أخبرني ملازم الشرطة الآن.

- وما الخبر الثاني؟

- الأمر الثاني هو أن...

- تكلمي يا دكتورة أرجوك.

- حسب ما حدثني به ملازم الشرطة أن أحد المختطفين هو رجل له قرابة معك.

- قرابة معي؟ ماذا تعنين؟

- أحد المختطفين هو والدك يا أسيل وهو يقول إنك ابنته، لقد طلب أيضا أن يراك.

شعرت أسيل فجأة بإحساس غريب لم تشعر به طوال حياتها. خيّم الصمت داخل الغرفة ولم تستطع النطق بكلمة واحدة من شدة صدمتها بهذا الخبر. فطالما كان موضوع والدها هو الجانب المظلم في حياتها دائما.

- أتعلمين يا دكتورة؟ أقسم لك أنني لم أستطع تصديق ما سمعته منك. لِم يقوم أبي باختطافي؟ ماذا فعلت له؟

ثم انفجرت باكية وارتمت في حضن الطبيبة كطفلة صغيرة.

- لا تبكي يا أسيل أرجوك. أنا معك الآن لا تقلقي ولتحمدي الله على سلامتك، يجب أن تفرحي أنك بخير ولم يصبك أي مكروه.

كانت أسيل تبكي بشدة والدموع تتهاطل من عينيها بغزارة كبيرة.

- لا أصدق أبدا ما يحدث لي، لقد كنت أحبه وأفكر فيه دائما رغم أني لم أره في حياتي، كنت دائما أتحاشى الحديث عنه بين صديقاتي وزملائي خشية أن يسألني أحد عنه أو عن أحواله، لأني لم أشأ أن أنكل عن جراحي التي كبرت بها بلا أب يسأل عني وكأنه ميت، لقد جعلني اختفاؤه هذا طيلة حياتي فتاة ضعيفة جدا، ورغم حضور أمي الدائم إلا أنني كنت دائما أحن ليد رجل تمسكني لأشعر بالأمان وأنا أمشي. ورغم كل هذا كنت أنتظر دائما اليوم الذي سأراه وألتقي به، لأُصعق اليوم بأنه من اختطفني ورماني كالجثة بين الأشجار.

- لابد أن خطأ ما قد حدث يا أسيل، وإلا فلماذا يطلب رؤيتك الآن؟

فضّلت الطبيبة الكذب عليها لعلّها تخفف قليلا من صدمتها هذه، لم تشأ إخبارها بالحقيقة الكاملة التي أخبرها بها ملازم الشرطة، فوالدها اليوم هو مجرم لا يستحق أبدا رؤيتها أو الحديث معها

ولكن إحساسًا ما جعل الطبيبة تحاول إقناعها بأن تذهب لتراه للمرة الأخيرة.

- لا أدري ولا أستطيع إدراك شيء الآن صدقيني.

- لا تبكي يا أسيل لا تبكي، هيا جهزي نفسك لرؤية أباك فهو ينتظرك وبالتأكيد هناك خطأ ما أنا متأكدة من ذلك. هيا الشرطي بانتظارك في الخارج.

- حسنا يا دكتورة، أرجو فقط أن يكون كلامك صحيحا.

**

خرجت أسيل رفقة ملازم الشرطة من رواق المستشفى تسير خلفه ببطء وكانا كلاهما يبعد عن الآخر بمترين على الأقل. كانت أسيل تمشي وكأنها متحاشية عبد القادر خجلا واستحياء منه، فهي لم ترافق رجلا طيلة حياتها باستثناء جدها الذي كان يزورهم بين الحين والآخر.

وصلا إلى الفناء الخارجي ليجدا سيارة بيضاء اللون تابعة لقسم شرطة العاصمة تنتظر قدومهما.

- هل هي السيارة التي ستنقلنا إلى حيث أبي؟

- نعم هذه هي السيارة، يمكنك الركوب في الخلف.

صعدت أسيل إلى الجهة الخلفية للسيارة بينما جلس الملازم عبد القادر بجوار السائق الذي انطلق بسرعة كبيرة.

كان المكان باردا لدرجة أن أسيل انكمشت وأخذت تضغط بذراعيها على نفسها، كانت الساعة تقترب من السادسة مساء وهو وقت تنخفض فيه درجة الحرارة قليلا. ولأن الملازم كان يراقب

كل تحركاتها من خلال مرآة السيارة الجانبي أشار للسائق بتشغيل المدفأة قليلا لتكون الفتاة أكثر دفئا وارتياحا مما عليه الآن.

بعد مسيرة نصف ساعة على الأقل وصلت السيارة إلى مركز الشرطة القضائية لولاية الجزائر، كان هذا المقر المبني على ساحل العاصمة بالحجارة الضخمة ذو مظهر كلاسيكي قديم، تحيط به أشجار النخيل من كل جانب باستثناء الجهة المطلة على البحر، تعمّد المصممون آنذاك على ترك تلك الواجهة من دون أشجار ليستمتع أفراد الشرطة دوما برؤية زرقة البحر وجمال المنظر من خلال نوافذ مكاتبهم وغرفهم القابعة على تلك الجهة.

دخلت أسيل رفقة الملازم عبد القادر إلى الغرفة التي يتواجد بها والدها وهي في منتهى الألم والحزن، متوترة وخائفة غير قادرة على الوقوف، كانت تبذل جهدا كبيرا لتمشي وتستعيد أنفاسها.

كانت كل أنظار رجال الشرطة متوجهة إليها وكأنها شاردة تنظر إلى والدها دون أن ترمش عينيها. كانت كلما اقتربت منه أكثر شعرت بخفقان قلبها يشتد في كل خطوة فيكاد يحطم عظام صدرها.

إنها ملامح والدها أخيرا!

لقد كان أنين مشاعرها بالكاد يُسمع وسط الحضور. مشاعر مختلطة بين رؤية الأب الغائب طيلة عشرين سنة تقريبا وبين علمها بأنه الشخص نفسه الذي كان سببا في هذه الأزمة النفسية وفي هذه الحالة التي آلت إليها جراء عملية اختطافها ومحاولة قتلها.

لم يتغير كثيرا مقارنة بالصورة الوحيدة التي بحوزتها عدا بداية تسرب بعض شعرات الشيب إلى رأسه.

كان فردان من رجال الشرطة يمسكان ذراعيه بينما رُبطت معصميه بالأصفاد الحديدة. اقتربت ببطء نحوه بينما لا تزال عيناها تنظران إليه دون حراك. كان عادل يجلس فوق كرسي حديدي مخفضا رأسه إلى الأسفل، لم يرفع من عينيه إلا بفعل كلمات المفتش له:

- سيد عادل، كنت قد طلبت رؤية ابنتك؟ ها هي التي أردتم قتلها!

كان وقع تلك الكلمات كمزيج من التقزز والإحساس بالألم والخيانة في نفس أسيل. لقد تأكدت أن كلام الطبيبة كان محض هراء وكذب فقط وأن أباها فعلا هو السبب وراء كل ذلك ولا وجود لأي خطأ أو سوء تفاهم يجعل منه شخصا بريئا، خاصة لدى رؤيتها لتلك الأصفاد الحديدية وهي محكمة على معصميه.

بقي عادل صامتا ينظر بعينين واسعتين إلى وجه ابنته متأملا ملامح وجهها البريء.

تكلم المحافظ:

- من الواضح أن والدك أراد فقط رؤيتك للمرة الأخيرة وهو لا ينوي الحديث معك. هل تريدين قول شيء له يا ابنتي؟

صمتت أسيل لبرهة قصيرة ثم استجمعت قواها وراحت الكلمات تخرج من فمها بنبرة مليئة بالألم والقهر:

- لم أكن أعلم أني سأراك يوما، لقد كان ينتابني دائما هذا الشعور بأني وأنت لن نلتقي بالرغم من أني كنت أنتظرك دوما بشوق، وها قد التقينا اليوم ويا ليت هذا اليوم لم يحن. كنت دائما أفكر وأتساءل لما لا تأتي لرؤيتي وأنا ابنتك الوحيدة؟ وها هو يتضح كل شيء اليوم وعرفت أجوبة لكل تساؤلاتي المتكررة. لا

بـأس يـا أبـي لا بـأس! سـأدعك اليـوم مـع مصـيرك وسـنلتقي في مكـان آخر ولن أشفع لك حينها.

- أسيل!

- ماذا تريد مني؟

- أسيل أريد إخبارك بشيء.

- ماذا تريد؟ تكلم!

- أمك!

- ما بها أمي؟

- أمـك هي مـن دبّـرت خطـة وصـولك إلى هنـا، هي مشـاركة أساسـية فـي هـذه العمليـة، وقـد قامـت بإلصـاق قضـية اختفائـك بأحـد صـديقاتك ودبّـرت كـل ذلـك بإحكـام. أنـا لـم أذهـب إلى تـونس مطلقـا بـل هي مـن قامـت بإحضـارك إلى هنـا بمسـاعدة أحـد الرجـال هنـاك. قمـت بإخراجـك مـن تلـك المصـحة لـيلًا بعـد أن علمـت بـأنهم سـيقتلونك، نعـم شـاركت في اختطافـك لكـن برنـامجهم تغيـر ولـم أكـن أعلـم أن الأمـور سـتجري عكـس مـا تـم التخطـيط لـه في حضـوري، لهـذا قمـت بالمجازفـة لـيلا بإبعـادك ووضـعتك داخـل حديقـة صـوفيا كي تتمكني مـن الهـرب والإفـلات مـنهم صـباحا. كانـت تلـك الوسـيلة الوحيـدة التـي اسـتطعت بهـا إبعـادك وإنقـاذك في نظـري، كـان كـل هـذا بسـبب زمـرة دمـك النـادرة والثمينـة التـي تحملينها داخل عروقك.

- أمي أيضا؟ يا إلهي لا أصدق! لا أصدق هذا.

صـعقت أسـيل لسـماعها تلـك الكلمـات ثـم تـراءت في مخيلتهـا صـورة أمهـا وهـي علـى شـكل أم خائنـة أيضـا كوالـدها، لتـدخل في حالـة

هستيرية من البكاء والصراخ لم يستطع أحد من الحاضرين فعل شيء لها.

- ولكن أجبني! لماذا شاركت في اختطافها ثم قررت إبعادها بعد ذلك؟

تكلم محافظ الشرطة بعد صمت.

- كان اتفاقنا في بادئ الأمر غير الذي سمعته من السيد كمال وهو يتحدث عنه عبر الهاتف مع أحد الأطباء الذين يتعامل معهم دائما، لأتبين بعدها أن ذلك الطبيب هو صديق رجل أعمال إيطالي يدعى "أندريه" وهو نفسه صاحب صفقة شراء أكياس الدم الخاصة بأسيل.

- لم أفهم جيدا فصّل حديثك أكثر.

- حسنا يا سيدي، لقد كنا في البداية متفقين على سحب كيس دموي واحد فقط من دم أسيل وإبقائها داخل المصحة في الأعلى كمريضة عادية إلى حين تعافيها ثم إعادتها إلى تونس بعد ذلك. حدّدت شرطا وقتها بأن أكون أنا المشرف عن عملية سحب الدم ومتابعة صحتها خلال كل تلك المدة التي ستبقى فيها نزيلة لدينا، لأني لم أكن أثق بكمال تمام الثقة.

- وكيف جرت الأمور إذن؟

- الأمر الذي اكتشفته مصادفة هو أن كمال خطّط لإبعادي عن عملية سحب الدم لصالح ذلك الطبيب، لأكتشف أيضا أنه فعل هذا ليتسنى له سحب كمية أكبر من التي اتفقنا عليها.

- وكيف علمت بهذا الأمر؟

- كان ذلك محض مصادفة، لقد توجهت إلى مكتبه عشية البارحة وفور وصولي أمام باب المكتب سمعت حديثه عبر الهاتف،

استرقت السمع قليلا لأفهم ما يجري فعلمت وقتها أني وقعت ضحية خدعة دبرها مع ذلك الطبيب، وهذا ما دفعني إلى إبعادها بأي طريقة كانت.

- وهل أراد سحب كمية الدم كلها؟

- نعم يا سيدي، لم يُرد ترك ولو قطرة واحدة داخل شراييها، وهو الأمر الذي لم أرضى به ولم أقدر على تقبله وهي ابنتي، رغم أني...

- رغم ماذا؟

أغمض عادل عينيه ثم أنزل رأسه إلى الأسفل لتنزل معه سيولا من الدموع على خديه. لم يقوى على نطق كلمة أخرى، تذكر حينها كل تلك الجرائم التي اقترفها ولطّخ أيديه بها مقابل أموال لم يتلذذ بها ولو ليوم واحد، ربما لم يكن قد فكّر لمرة واحدة بأن هذا المسعى لن يمكّنه بأي حال من الأحوال بأن يساعده في الوصول إلى غاياته وطموحاته، وبأن كل ما قام به حتى الآن ما هي إلا جرائم بشعة لن يتقبلها عقل، والمصيبة الكبيرة أنه تعدى بذلك ليصل بوحشيته هذه إلى ابنته التي من صلبه.

كانت أسيل تستمع إلى كلام والدها والدموع تنهمر من عينيها دون توقف.

ما إن تقدّمت شرطيتان نحوها لمواساتها، شعرت أسيل فجأة بالضعف والرغبة في الصراخ بأعلى صوتها وكأن وضْع الشرطية ليدها فوق كتفها قد زاد من آلامها وجراحها. صمتت قليلا ثم على نحو مفاجئ أحسّت بما يشبه صدمة كهربائية أصابت أسفل رجليها لتتصاعد شيئا فشيئا إلى أعلى جسمها قبل أن تُحدث صرخة ملأت بها المكان.

***

الحقيقة القديمة

15

إليك القصة يا أسيل.

إليك الحقيقة التي عمرها عشرون سنة...

في صباح أحد أيام شهر يونيو من سنة 1998 استيقظنا صباحا على مكالمة من إدارة المستشفى، كان المدير شخصيا يطلب منا القدوم بسرعة ليخبرنا عند وصولنا أن زمرة الدم الخاصة بابنتنا غير عادية لذا يجب علينا من الآن مراعاة هذا الجانب جيدا، كان عمرك وقتها أقل من شهرين.

تساءلت حينها:

- ما المقصود بكلمة غير عادية أيها المدير؟

حدّثنا عنها مدير المستشفى قليلا ثم كتب لنا ورقة صغيرة وأعطاني إياها، أخذت الورقة إلى المنزل، وبعد أيام من البحث عن صنف هذه الزمرة علمنا أنه نوع نادر جدا لا يحمله إلا عدد محدد حول العالم. زمرة قيّمة للغاية وقدرتها على إنقاذ حياة الناس هائلة، تسمى RhNull ويطلق عليها لقب زمرة الدم الذهبية.

بعد هذه المعلومات لا أدري كيف جاءت أمك بفكرة بيع القليل من دمك في كل مرة بما أنه نادر وثمين وقد يجلب لنا الكثير من المال، الراتب في ذلك المشفى العمومي الذي كنت أعمل به لا يكفي للعيش الذي أردناه أنا وأمك وها هي الفرصة الثمينة اليوم جاءتنا عن طريقك أنتِ.

مع مرور الأيام لم تقوى أمك على تحمل العيش بجانبي بسبب خلافاتنا المتكررة، وبعد الكثير من المشاكل وصلت علاقتنا إلى طريق مسدود، قررنا حينها تطبيق الحل الأخير، الطلاق.

بعد حادثة الطلاق وبسبب أمك ومشاكلها المتكررة كنت قد سئمت كل شيء، فهاجرت إلى الجزائر للعمل تاركا لها المنزل والسيارة، وبعد أشهر قليلة اتصلت بي مدّعية أنها تسأل عن أحوالي، وفي نفس اليوم وبعد ساعات متواصلة من الحديث عبر الهاتف عادت مياه علاقتنا إلى مجاريها، لكن المجرى هنا ليس مجرى الحب والمودة بل مجرى المصلحة المتبادلة التي اتفقنا عليها قبل طلاقنا، فهي تملك البنت وهي أنتِ وأنا السند الرجولي الذي أعرف أين يمكننا بيع دمك الثمين، فبدوني لن تستطيع هي عمل شيء، لهذا جاهدت لإعادة نشاط علاقتنا من جديد.

لم تسنح لنا الفرصة لترتيب موعد نزع الدم وبيعه إلا بعد مرور سنوات طويلة، فالأمر ليس بالسهل خصوصا صعوبة إيجاد من سيستطيع الشراء. لكن الحظ هنا فاجأنا، لأن كمال صاحب المصحّة التي صرت أعملها بها هنا في الجزائر العاصمة كان أحد أكبر النصابين واللصوص، كان يمارس كل أنواع الجرائم الطبية بالاستعانة بأشخاص يعرفهم، كانوا يشكلون عصابة تمتهن سرقة الأعضاء البشرية من مرضى المصحّة والمتاجرة بها، وعمليات أخرى كإجهاض الحوامل وبيع المؤثرات العقلية وأدوية ممنوعة وغيرها. مع مرور الوقت اقتربت منه شيئا فشيئا إلى أن أصبحت شريكا معه في هذه العمليات.

وجد كمال أخيرا من بوسعه شراء هذه الزمرة الثمينة وتمت الموافقة على الصفقة في بداية شهر آذار الماضي، ليتم بعدها التخطيط لعملية تهريبك إلى هنا.

عند وصولك إلى المصحة كنتِ لا تزالين نائمة تحت تأثير المخدر، كان أول ما قمت به هو نزع القليل من دمك وتحليله، أين تم

التحقق من أن نوعية الزمرة التي نبحث عنها صحيحة، ومن دون شك أن آثار تلك الإبرة لا تزال على أحد ذراعيك.

مشى كل شيء كما تم التخطيط له لكن الأمر تغير قبل ساعات قليلة من عملية سحب دمك، فكما ذكرت قبل قليل وبعد سماعي لحديث كمال عبر الهاتف سارعت مباشرة إلى مكتبي والتفكير في كيفية إخراجك من هنا وإلا فمصيرك الموت لا محالة. تظاهرت حينها بأني سأغادر المصحة باتجاه منزلي وقمت بركن سيارتي في مكان ضيق بين الأشجار، ولحسن الحظ كان ذلك المكان تحت نافذة الغرفة التي ترقدين فيها مباشرة، لزمت السيارة إلى حين وصول عقارب الساعة إلى الواحدة بعد منتصف الليل حيث لا أحد يمكنه رؤيتي وأنا أُخرجك من نافذة الغرفة باتجاه السيارة، ثم مباشرة إلى خارج المصحة بأقصى سرعة. كانت حديقة صوفيا هي وجهتي الأولى فهي المكان الوحيد القريب الذي يمكنك أن تكملي نومك داخله بعيدا عن الأعين بين تلك الأشجار الكثيفة.

هذا كل ما جرى وما تم التخطيط له منذ أن كنتي صغيرة، أردت إخبارك بكل هذا كي تعرفي ما الذي كان يجري من حولك وأظن أنه من حقك أن تعرفي تفاصيل الحقيقة الكاملة.

***

دموع باردة

16

أكثر من عقدين من الزمن هي المدة التي عشتها مع أمي. أتذكر منها حوالي ست عشرة سنة يوما بيوم. جعلتني كل تلك السنوات أحب أمي كثيرا ولا أزال أحبها، فالمعتاد على الحب من الصعب عليه ترك هذا الشعور. واليوم لا شيء يؤلمني سوى مصير أمي رغم أنها تستحق جزاء على فعلتها، فهي مجرمة أيضا حسب ما تقتضيه قوانين الدول والمجتمعات كافة.

عندما كنت صغيرة حدثتني كثيرا عن والدي وبأنه رجل قوي شهم لا يزلزله شيء، كانت تبالغ دائما في تمجيده وثنائه، غير أن قاربه انقلب بسهولة أمام رياح خفيفة عابرة، جعل من ابنته الوحيدة فريسة يسدّ بها رمق شهواته المادية التي استفاق من كابوسها حين فات الأوان. الآن تنتابني رغبة في البكاء حزنا على كل تلك السنين التي ظننت فيها بأن أمي الحامية الوحيدة لي هي في الأصل الوحيدة التي لا تستحق لقب أم أنجبت وربّت.

رغم أنها كانت تخشى عليّ كثيرا لكني طوال تلك المدة لم أقدر على فهم كل ذلك الخوف، ولماذا كل هذه المبالغة؟ كنت أجلس أحيانا بمفردي وأفكر بخوف، ترى ماذا سيحل بأمي إن أصابني مكروه ما؟ وما بوسعها أن تفعل حينها وهي التي تخشى عليّ كل تلك الخشية؟

الآن ومن خلال كل ما حدث اليوم وجدت الإجابة لكل تلك التساؤلات.

تنتابني أيضا رغبة في البكاء حزنا على كل ذلك الوقت الذي مضى ورسمت من خلال مرور كل يوم منه صورة أبٍ يشبه في قوّته

وهيبتــه صــورة الأبطــال فـي مسلســلات الكرتــون التـي كبرنــا علـى مشــاهدتها، كـان في مخيلتي وأنــا صـغيرة بمثـل تلـك القـوة والشـهامة في حب الأطفال وحمايتهم.

لم أكن أعلم أن الحقيقة تختلف تماما عمّا كنت أتخيله!

ســأعود اليــوم لمواصــلة حيــاتي بــدونكم، أعلــم أن تربيــة أمــي لـي وخوفهــا المبــالغ فيــه جعــل مني فتــاة هشــة لا تقــوى على مواجهــة الحيــاة بمفردهــا، لكــن لا خيــار آخــر لـي فمــا رأيتــه اليــوم ســيكون أعظم درس تلقيته في حياتي وأظن أني سأستفيد منه كثيرا...

- انتهى بحول الله -

الشكر موصول:

لذلك الفنان الذي آمن بفكرتي، أقدر دعمك الكبير

وأؤمن بأنك ستعلو خشبة العظماء يوما...

لصديقي يوسف، شكرا على توجيهاتك وكلماتك

المحفزة دائما.

لكل الأصدقاء المساهمين بأفكارهم، دمتم لي أحباء.

حلم الذهب الأحمر

كانت رحلة أسيل إلى الجزائر غير مهيأة بعد، لكنها لا تزال دائما مبرمجة وعلى قائمة الانتظار لغاية عمرها عشرون سنة.

ركبت أسيل الطالبة بجامعة المنار بتونس العاصمة سيارة أجرة لتعود إلى منزلها بعد يوم متعب من الدراسة، داخل تلك السيارة قام أحد الركاب بمهاجمتها بعنف من الخلف ليغمي عليها فورا.

بعد أربعين ساعة من الغشيان استيقظت أسيل لتجد نفسها بأحد المحلات الصغيرة المصنوعة من الخشب للأكلات السريعة داخل حديقة بأحد شوارع الجزائر العاصمة.

لا تزال تحت الصدمة حين أخبرها الرجل العجوز صاحب ذلك المحل بأنها في الجزائر، الجرح على ذراعها الأيمن آلمها قليلا لكنها لم تعر له اهتماما كبيرا. غير أن أحدهم تدخل ليتبين فيما بعد أن ذلك الجرح هو مفتاح السبيل الذي سافرت لأجله مكرهة.

ما سر رحلة الفتاة التونسية أسيل إلى الجزائر؟

الفهرس

_ الإهداء 05

_ مقدمة الكاتب 07

_ خارج المطبخ 11

_ الافتراء 15

_ حديقة صوفيا 19

_ الورطة 29

_ عبدالقادر 37

_ الاعتقال 45

_ فلاش باك 55

_ سيارة الإسعاف 65

_ التحف 75

_ لغز زمرة الدم 81

_ رسالة من مجهول 91

_ عمليات مشابهة 101

_ القبو 115

_ مصطفى باشا 129

_ الحقيقة القديمة 141

_ دموع باردة 147

_ الشكر موصول 153

_ حلم الذهب الأحمر 155

_ الفهرس 157

...

حُلم الذهب الأحمر

كانت رحلةُ أسيل إلى الجزائر غير مهيأة بعد، لكنّها لا تزال دائما مبرمجة وعلى قائمةِ الانتظار حتى أصبح عمرها عشرين سنة.
ركبت أسيل الطّالبة بجامعة المنار بتونس العاصمة سيّارة أجرة لتعود إلى منزلها بعد يوم متعب من الدّراسة، داخل تلك السيارة قام أحد الركّاب بمهاجمتها بعنف من الخلف ليغمى عليها فورًا.
بعد أربعين ساعة من الإغماء استيقظت أسيل لتجد نفسها بأحد المحلاّت الصغيرة المصنوعة من الخشب للأكلات السريعة، داخل حديقة بأحد شوارع الجزائر العاصمة.
لا تزال تحت الصّدمة، حين أخبرها الرجل العجوز صاحب ذلك المحل بأنّها في الجزائر، الجرح على ذراعها الأيمن آلمها قليلًا لكنّها لم تعرْ له اهتماما كبيرا.
غير أنّ أحدهم تدخل ليتبيّن فيما بعد أنّ ذلك الجرح هو مفتاح السبيل الذي سافرت لأجله مكرهة.

إلياس بن يسعد

E-mail : wamdaedition@gmail.com
dar.wamda7@gmail.com

Tel : 00213657300415

رقم الإيداع: --978-9931-896

دار ومضة للنشر والتوزيع والترجمة

حُلم الذهب الأحمر
إلياس بن يسعد
رواية